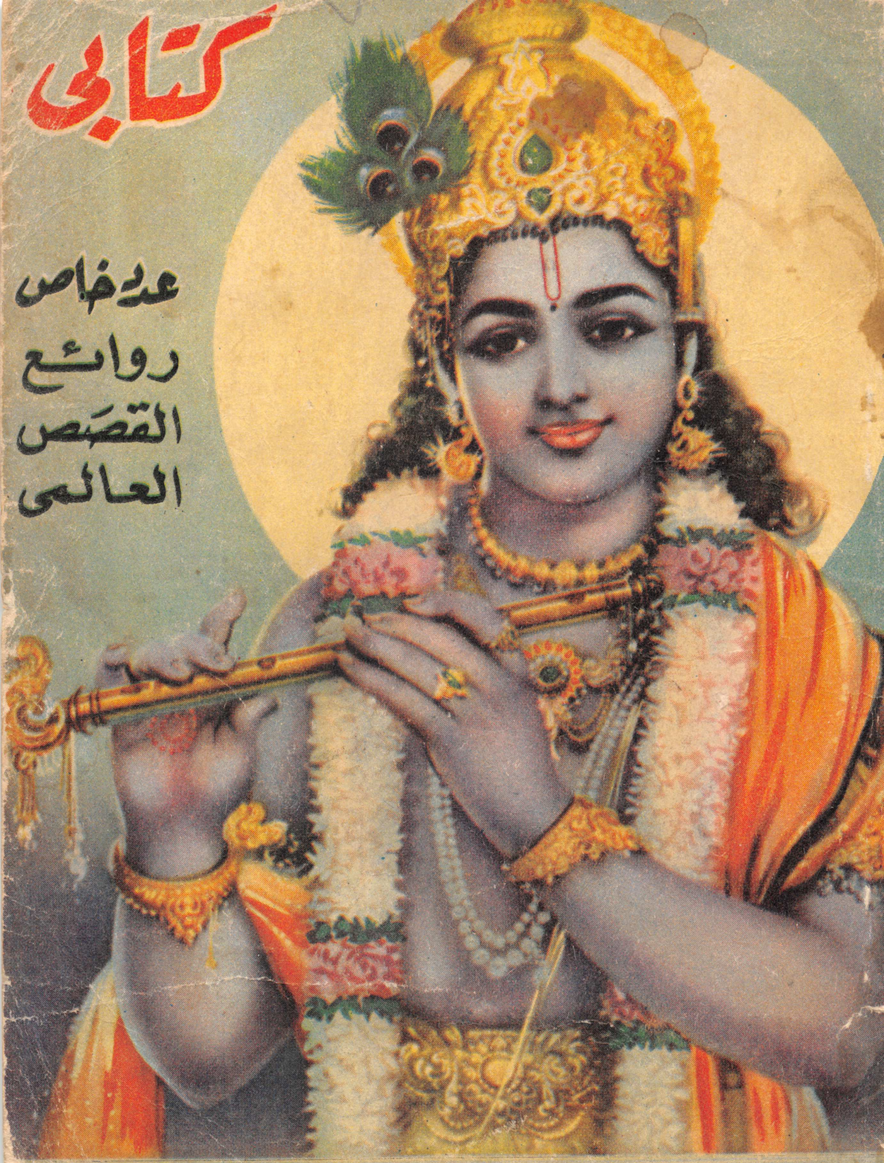
كتابي

عدد خاص
روائع
القصص
العالمي



أطلب مع هذا العدد "مجلة الصغار" هدية منفصلة في ٣٢ صفحة

كتابى

مجلة شهرية للثقافة العالمية

اطلب مع هذا العدد
هدية منفصلة فى ٣٢ صفحة

مجلة الصغار
للأولاد والبنات

رقم : ١٠٥

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة ١١١ ، القاهرة ـ تليفون ٤٦٤٧٥

الناشر : دار الشعب ـ ٩٢ شارع قصر العينى القاهرة ـ تليفون ٣١٨١٠

ثمن النسخة : ١٥ قرشا

اللوحات الداخلية

بريشة الرسام : ((سمير ثابت))

الحب المقدس

مأساة إنسانية رائعة
أثناء جهاد إيطاليا ضد النمسا



بقلم : ابراهيم المصرى

من مآثر حرب من حروب الاستقلال

« كانت حرب الاستقلال الايطالية دائرة الرحى فى سهول مقاطعة (لومبارديا) ، عام ١٨٢٠ ، وكان المجاهدون الايطاليون يقاتلون جيش الاستعمار النمسوى قتالا عنيفا ، تحت زعامة بطل من أبطالهم يدعى « أتيليو » وفى خلال هذه الحرب المجيدة وقعت حوادث هذه القصة التى تعتبر مأثرة من مآثر الجهاد الوطنى فى ايطاليا والعالم » .

● **كانت** الجدة العجوز « ماريا » قابعة فى ركن من أركان البهو الصغير ، تحدق فى الشعلة المستطيلة من شمعة كبيرة مثبتة فى اناء ، وقائمة بجوارها فوق منضدة . وكانت هذه العجوز – التى أشرفت على السبعين – قد غافلت أسرتها منذ بضعة أشهر ، واندست فى صفوف جيش التحرير ، وقاتلت معه ، وتمكنت من قتل أربعة ضباط نمسويين . **فلما ألقى القبض عليها ومثلت أمام الحاكم العسكرى النمسوى ، أصابتها نوبة مروعة من التشنج ، وطفقت تضحك ، وتصرخ ، وتهذى !.. فاعتبرها الحاكم عجوزا مجنونة وخرقاء ، فأمر بجلدها لتكون عبرة لسواها ، وألقى بها فى السجن شهرا ثم أطلق سراحها** . وها هى ذى ماريا فى بيت زوج ابنتها ، منكمشة فى مقعدها العميق ، تضحك فى بلاهة كعادتها ، وتتأمل الشمعة المضاءة ، وتخالس بيدها المرتعشة وهج النار ، وعينها الثاقبة تحوم حول أبنتها « روزين » .

وكانت « روزين » تنظر الى أمها فى حسرة ، وتستغرب كيف أصبحت هذه المرأة ـ التى اشتهرت برجاحة العقل وقوة الأعصاب ـ مجنونة ومعتوهة !.. ومع ذلك فان روزين كانت تشكر ربها ، وتقول فى نفسها ان أمها لو ظلت متنبهة وعاقلة ، لكان الموت مصيرها المحتوم ولابد ، على يد الحاكم النمسوى !

على أن روزين لم تكن تفكر فى أمها فقط ، ولا كانت تتحسر عليها وحدها ، بل كانت تفكر أيضا فى ابنها هى .. ابنها الوحيد « كارلو » الذى غادر البيت منذ ثلاثة أيام ولم يعد ، والذى انطلق والده يجوب سهول (لومبارديا) بحثا عنه على غير جدوى !..

والحق أن « كارلو » كان قد تحول فجأة وتغير . لم يعد ذلك الشاب الذى كانت تفخر به أمه ، لاستقامته ورصانته وخلقه الأبى المتين . كان داعيــة من دعاة الحرية كوالده ، وعلما من أعلام البطولة فى قريته . وكان قد أحب وخطب الفتاة الطاهرة البريئة المجاهدة « جلوريا » . ولكنه لم يلبث أن خان عهدها ، ونبذها ، وأصبح ـ بين عشية وضحاها ـ ماجنا مستهترا خليعا ، يسخر من أبيه الكهل الوطنى الغيور ، ويهزأ بأمه التى تنافس فى صدق الوطنية زوجها ، ويتعمد تحقـير جدته المجنونة العجـوز ، التى كانت تحتمله فى جلد وصبر ، وهى لا تفتأ تحدق فيه تحديقا ثابتا غريبا ، بينما تتحسس أصابعها المرتعشة الشمعة المضاءة ، وتخالس ـ فى حذر ـ وهج النار ..

●●

● **ورفعت** روزين رأسها ، وتأملت صورة ابنها المثبتة الى الحائط ، وسرعان ما ذكرت علاقته بالأرملة الجميلة الثرية « ايفونا » ، فغلى الدم فى عروقها !.. هـذه المرأة هى التى

أفسدت خلق ابنها .. هذه المرأة هى التى سلبته خطيبته جلوريا ، وجعلت منه فتى مدللا مخنثا وضيعا ، لا ينشد فى الحياة غير أسباب الترف وألوان اللذة ، ومفاتن العز والسؤدد والجاه العريض !

وتقبضت تقاطيع وجه الأم ، وشاع فى عينيها الغائرتين ضباب الهم والأسى . فهتفت فى سريرتها ، من أعماق نفسها وهى تتلوى : **« كيف أنقذه من براثن تلك الفاجرة ؟.. كيف أسترد ولدى ، ولدى الذى لم أرزق بسواه .. ولدى الذى كان غاية لحياتى ، وأملا لوطنى ، وفخرا ومجدا لنا أنا وزوجى المجاهد المكافح المسكين ! ؟ »**

وتلفتت الى أمها ، عسى أن ترى فيها انسانا حيا يمكن أن يستجيب لها ، ولكنها أبصرت الجدة العجوز زائغة العينين ، متقدة الوجنتين ، تتفرس فى اللهب الأحمر كعادتها ، وتضحك وتهذى كالأطفال . فاعتصر الألم قلب روزين ، ولم تستطع الا أن تحنى رأسها خائرة ومنهوكة ، وتطلق لدموعها العنان ..

وفجأة سمع طرق متواصل على باب البيت ، فأسرعت روزين ملهوفة وفتحته ، ولكنها بدل أن تبصر ابنها أو زوجها ، ألفت نفسها تجاه الفلاح الشيخ السكير « أنطونيو » ، ينظر اليها بعينيه الحادتين نظرة قاسية حاقدة ، ويدفعها بيده ويدخل !.. وارتمى الفلاح على مقعد وهو يسعل ويترنح . لم يلتفت الى الجدة المعتوهة ، بل تطرح واسترخى ، وتحول صوب « روزين » ، وقال فى خشونة وانفعال :

ـ تعلمين أنى فقدت ابنى الوحيد فى المعركة القائمة بيننا وبين أعداء بلادنا ، وانى أدمن الآن شرب الخمر ، لا لأتعزى ، بل لأستنهض البقية الباقية من قواى وأستطيع أن أصيب النمسويين فى مقتل ، وأنتقم لولدى !.. فهل أنت أفضل منى ، وهل تقيمين وزنا لحياة ولدك أكثر مما كنت أنا أقيم وزنا

لحياة ولدى ؟ .. ان حياة أولادنا ملك لبلادنا يا روزين . وكل أم تؤثر حياة ابنها على مستقبل بلادها هى أم خائنة لوطنها الذى هو ابنها الحقيقى الخالد السرمدى !

فذهلت المرأة وارتعشت ، وغمغمت :

ــ لا أفهمك .. صرح بما فى ضميرك يا أبت ولا تعذبنى !

فدنا الشيخ منها وهو يتعثر ، وأمسك بيدها ، وقال فى صوت غائر أجش :

ــ ان ابنك كارلو لم يعد منا . لقد التحق بمكتب المباحث التابع للنمسويين ، وهو الآن جاسوسهم علينا !

ففغرت روزين فاها كبلهاء ، وجمدت كأنما قد ضربتها صاعقة . أما العجوز المجنونة فقد تاهت عيناها ، وتوزعت نظراتها ، وارتجفت يدها الضامرة ارتجافا متعاقبا وهى تداعب النار . ثم هزت كتفيها ، وابتسمت ومضت تدمدم وتضحك وتهذى . فرمقها الشيخ بنظرة مستنكرة وأردف :

ــ يجب أن تصارحى زوجك يا روزين . انه رجل وطنى مجاهد لا شبهة عليه .. وهو ساعد زعيمنا وسنده ، بل هو أنبغ وأقدر كاتب لتلك النداءات الحماسية التى نوزعها كل يوم على جنودنا ، والتى تضرم فى صدورهم جذوة الوطنية وروح الأمل والايمان والكفاح . فعار على الولد ألا يكون صورة من أبيه ، وعار على الأسرة كلها ان لم ترده عن غيه وتلزمه محجة الصواب !.. هذا انذار لكم يا روزين فاحذروا !.. لسوف تنكشف الحقيقة للزعيم فيورد ابنك الوحيد ــ ان عاجلا أو آجلا ــ مورد التهلكة !

فارتعدت المرأة ، وأفاقت بغتة من غشيتها ، وأدركت . ولم تكد تدرك وتفهم وتتأمل ، حتى هالتها فظاعة الاتهام الشائن ولم تصدق . لم تستطع أن تتصور أو تسمع أو

تصدق . فاندفعت نحو الشيخ كوحش كاسر ، وصرخت فيه وهى تختلج وتهدر :

ــ أنت كاذب !.. أخرج .. أقول لك أخرج !.. ان هذا البيت أطهر وأشرف من أن يلوثه مثلك أيها السكير المخرف النمام !

فتحامل الرجل على نفسه وخرج . ولكنه قبل أن يصل الى عتبة الباب ، التفت الى المرأة وقال :

ــ لقد أبرأت ذمتى . واذا كانت أمك العجوز مجنونة ، فلا تكونى أنت وزوجك من العميان !

●●

● **وانصرف** وهو يتطوح . فاتبعته روزين النظر وقد استولي عليها ضرب من القلق يشبه الخبال . فاندفعت تذرع الحجرة وتردد : « أممكن هذا ؟.. أفى الاحتمال تصور شيء كهذا ؟.. ابنى العزيز المعبود الذى قاتل فى صفوف المجاهدين سنة بطولها ، ينقلب من فدائى الى جاسوس ، ويجلب العار على نفسه وعلى والده وأسرته كلها ؟.. **لا .. هذا افك وزور !.. هذه وشاية مختلقة ، بلغت من الخسة والدناءة حدا يستوجب قطع لسان كل من يروج لها !.. ومع ذلك فانا أرتعش .. أنا أوجس خيفة بالرغم منى وأرتاب .. ان الهوى يختم على البصر والبصيرة ، والأنثى الحقيرة الفاجرة قد تخنق فى الرجل كل شرف وكل عزة وكل ضمير !..** ولكن لا .. لا يمكن أن تكون « ايفونا » قد تغلبت على ما أودعته أنا فى نفس ولدى من مبادىء وفضائل وقوى . لا يمكن أن تكون قد قهرتنى . ان ابنى هو قطعة منى ، وبضعة من أحشائى ودمى . فهو اذن شبيهى . ومن المحال أن يتنكر للبطن الذى حمله والدم الذى صاغه وأوجده ! »

وأطلقت صيحة فرح مدوية ، وقالت وهى تنظر خلال النافذة : « ها هو كارلو ! »

ودخل الشاب يختـال فى ثوب أبيض أنيـق ويبتسم . فارتمت أمه عليه ، فعانقها وقبلها ، بينما كانت الجدة المعتوهة تشرئب اليه بعنقها تنتظر منه أن يحييها ويقبلها هى أيضا . ولكنه لوح لهـا بيده عن بعـد وأهملها ، وشرع ينضو عنـه ملابسه . وكانت أمه تتفرس فى جبهته العريضة الناصعة ، وفى عينيه الزرقاوين وخديه الناضرين ، وشعره السـاحر المموج الذهبى ، وتتذكر جلوريا المسكينة ، وايفونا الفاجرة التى سلب لبها هـذا الجمال .. وتتذكر فى الوقت نفسـه الشيخ أنطونيو فترتعش .. !

وجاشت عواطفها ، وضاق صدرها بما يحمل . فصاحت بابنها وهى تفتأ تحدق فيه :

ـ أين كنت طوال هذه الأيام الثلاثة ؟.. لقد تقطع قلبى وقلب والدك لهفة عليك . انه لا يزال يبحث عنك . ذهب الى ايفونا فلم يجدها فى بيتها ولم يجدك . فأين ، أين كنت ؟

فتطلع اليها الشاب لحظة ، وأنعم النظر فيها ، ثم قال فى صوت هادىء ثابت عميق :

ـ كنت معها .. فى منزلها القروى الصغير .. وسأتزوجها .. سأتزوجها يا أماه بعد أسبوع !

فاستشاط غضب الأم وقالت :

ـ وخطيبتك ؟.. خطيبتك المنكودة ؟.. أمن أجل تلك الأرملة الفـاجرة يطاوعك ضميرك على التخلى عن خطيبتك العذراء الطاهرة جلوريا ، الفتـاة الوطنية المجاهدة التى طالما أسعفت جرحانا ،وحملت المئونة والسـلاح الى جنـودنا ، واستهدفت للموت تحت وابل من الرصاص ؟ !

فتمتم الشاب :

ـ انى أحب ايفونا ، ولا بد أن أتزوجها !

فجحظت عينا المرأة وتشبثت بابنها وهتفت :

ـ محال ! لن تقتلنى وتقتل والدك !.. لن تبيع بالمال جمالك وشبابك وكرامتك !.. ان تلك الأرملة الثرية ذات ماض يندى له الجبين . لقد اتخذت لها عشاقا بعدد ما فى طبعها المستهتر المتلون من نزوات . ثم هى صديقة أعدائنا ، صديقة النمسويين ، تغشى محافلهم ، وتتعاون معهم ، وتخدمهم على حساب وطنها دون ما وازع من خلق أو ضمير !

● ●

● تملص الشاب من أمه فى عنف ، وانفجر بغتة ، وصرخ فى تواقح قاس صريح :

ـ وأنا أيضا سأعاونهم .. لن أحتمل الحياة بعد الآن !.. ماذا جنيت من خدمة وطنى ؟.. الفقر والبؤس والتشرد والرعب والاستهداف لموت عاجل يحرمنى متعة الحب والشباب ، وأنا بعد لم أعرف الدنيا !.. أتظنون أنكم أقوى من عدوكم ؟.. سيتغلب هذا العدو فى الغد عليكم ، ويصبح أقواكم وأقدركم صديقا له !.. فلماذا لا أصادق أنا العدو القوى منذ الآن ؟.. لماذا أخدع نفسى وأغامر بشبابى وأنزل مختارا عن حقى المشروع فى الحياة ؟.. لا .. سأتزوج ايفونا ، وأعاون النمسا القوية ، وأكون أول أيطالى عرف أين هو العقل والحكمة والمصلحة والصواب !

فغلى الدم فى عروق روزين وأمسكت بابنها فى ذعر وصاحت :

ـ **اذن فحق ما قيل لى من أنك أنكرت ايمانك ومعتقدك والتحقت بمكتب مباحث العدو ؟.. تكلم .. أجبنى !**

فحنى الشاب رأسه فى سكون ، وقال :

ـ نعم !

فانخلع قلب الأب وصرخت :

ـ تريد أن تعيش أنت وتقتل وطنك ؟.. تريد أن تعيش أنت وتقتل أباك وأمك ؟

فقال كارلو :

ـ ما على الحمقى الا أن يحتملوا المصير الذى اختاروه . ومع ذلك فأنا سأصارح والدى . سأحاول أن أقنعه . سأحاول أن أرده الى صوابه وأنقذه وأنقذكم قبل فوات الوقت !

فهتفت روزين :

ـ اياك .. اياك أن تفعل !.. اذهب .. اخرج أنت أيضا ! واذا كان ضميرك قد مات ولا بد لك من ارتكاب جريمة ، فاقترفها وأنت صامت . اقترفها وأنت بعيد عنى ، ودعنى أنقذ على الأقل البقية الباقية من بيتى وشرفى وحياتى .. اذهب .. عجل بارتداء ملابسك واذهب !

فتحركت العجوز المجنونة ، ومدت رأسها ، وجعلت تنظر الى الشاب فى بلاهة ، وهى تضحك ضحكا متقطعا متعاقبا ، وترمق من طرف خفى لهب الشمعة وتراقص النار ..

●●

● **وأثار** ضحكها أعصاب روزين ، فرددت ملتمسة متوسلة :

ـ اذهب .. اذهب ولا تعد أبدا .. اذهب قبل أن يأتى والدك !

فهزت العجوز اصبعها ، وتمتمت فى صوت يشبه النحيب :

ـ لا .. لا .. ولماذا يجب أن يذهب !.. انى أحبه .. انه عشيقى أنا !.. انه جميل !

فضحك كارلو مقهقها . وعاد فارتدى ثيابه متباطئا ، وأمه تستعجله وتحثه خشية أن يلتقى بوالده فيصطدم

الرجلان وتهب العاصفة . بيد أن القدر ، القدر الساهر ، القدر الساخر ، القدر الذى يجهل الانسان سره ويحار فى فهم تصاريفه ، كان أسبق من روزين .. فقد دخل الوالد فى تلك اللحظة نفسها . دخل الوالد ولم تهب العاصفة . لم تهب العاصفة بسبب أية كلمة نطق بها كارلو ، لأن الشاب لم يستطع أن يندفع ويتكلم عندما أبصر والده مقبلا ، ساجى الطرف ، شارد اللب ، متجهما متقبضا متصلبا !

ولم يلتفت الوالد الى ولده ، ولم يسأله عن سر تغيبه الطويل عن البيت ، بل التقط أنفاسه ، واستجمع قواه ، وقال فى صوت واضح المخارج ، باتر النبرات :

ـ العدو يتعقبنى .. لقد عرف الحاكم النمسوى أنى أنا الذى أكتب تلك النداءات الوطنية الحماسية المثيرة ، فأصدر أمره بالقبض على !

فوجم الشاب ، وجمدت روزين ، وظلت العجوز مثبتة عينيها فى الأشخاص الثلاثة ، كأنها تستغرب دهشتهم ووجومهم وتريد أن تفهم !.. ولم تعد يدها المرتعشة تخالس النار . أما الوالد الكهل فلم يحفل باضطرابهم جميعا ، بل استطرد متجها نحو زوجته وابنه :

ـ واجبك أنت يا روزين أن تسهرى على بيتك ، وتعتنى كل العناية بأمك ، وتنفقى فى حكمة واقتصاد من المبلغ الذى ادخرته أنا لك . واذا نفد المبلغ واحتجت الى مال ، فالجئى الى الزعيم فهو لابد أن يساعدك .. **أما أنت يا كارلو فاحرص على عملك فى المصنع ما استطعت . واذا انتدبك الزعيم فى مهمة وطنية فأطعه دون اعتراض . وغاية ما أطلب منك هو أن ترتد الى مسلكك السابق القويم ، وأن تعود الى جلوريا ، وأن تكون أنت رب الأسرة مكانى ، وأن تنهض بهذا العبء**

كرجل شريف، فتقطع كل صلة لك برفاق السوء، وكل علاقة لك بالفاجرة ايفونا، ولا تترك بيتك وأسرتك فى الليل أبدا ..
لا أريد أن أحاسبك الآن على الأيام الثلاثة التى أمضيتها خارج البيت . ولكنى سأحاسبك حسابا عسيرا لو أننى عدت حيا الى هنا . أما اذا قدر لى أن أموت، فأنت عندئذ وضميرك . ولا أظن أن ضميرك سيطاوعك ــ ولو لحظة ــ على التهاون فى رعاية أمك التعسة المسكينة وجدتك المنكوبة العجوز .. ان أملى كله معقود عليك يا ولدى .. فتعال .. تعال الى صدرى وقبلنى !

فأجهشت روزين بالبكاء . وفتح الوالد الكهل ذراعيه، وضم ولده الى صدره وقبله . ولكن الشاب كان مطرقا . كان مقطبا . كان كأنه يأبى الا أن يكبح عواطفه ويقاوم، فترك والده يقبله ولم يتحرك !.. فاستغرب الرجل جموده، وعزاه الى تأثره واضطرابه . فقبله مرة ثانية فى حرارة وحنان، وهم بأن يعانق « روزين » أيضا ويقبلها. وفى تلك اللحظة، ماج البيت، وسمع فى الخارج وقع حوافر جياد، متبوع بصهيل وضجيج . فتصلب الوالد، وارتعدت الأم، وأجفل الشاب . وهبت العجوز المعتوهة واقفة، وجعلت تحدق فى النـــار، وتضحك ضحكتها الخفيفة الخاوية المزعجة البلهاء .

●●

● **وفتــح** الباب فى عنف، ودخل منه ضـــابط نمسوى مصحوب بأربعة جنـود . وقال وهو يتجه من فوره نحو الوالد الكهل :

ــ ألست أنت المزارع وتاجر الحبوب « انريكو » ؟

فتقدم الرجل وأجاب :

ــ نعم .

فقال الضابط :

ـ لدى أمر بالقبض عليك أنت وزوجتك !

فتطلع اليه انريكو مبهوتا وغمغم :

ـ زوجتى ؟ !

فأردف الضابط :

ـ نعم . الأمر واضح ، وهو يقضى بالقبض عليك أنت وزوجتك وارسالكما الى المنفى ، الى معسكر الاعتقال فى النمسا ، حيث تشتغلان بقطع الأحجار وتعبيد الطرق مدى الحياة ..

فذهلت روزين ، وارتجف انريكو وتطوح . بيد أنه تمالك نفسه وقال للضابط فى دهشة :

ـ وهذه العجوز ؟.. وولدى ؟.. ولدى كارلو ؟.. ألم ينص الأمر على أن يعتقلا معنا ويرحلا فى صحبتنا هما أيضا ؟

فابتسم الضابط وأجاب :

ـ العجوز سنرسلها الى أحد المستشفيات . أما ولدك ، ولدك كارلو ، فقد أصبح منا . انه يجاهد الآن معنا . انه اليوم عضو عامل فى مكتب المباحث النمسوى !

فتداعت الأم وانسحقت . أما الوالد الكهل فقد شهق وتراجع كأنما قد نفذت الى صدره طعنة سكين . غاض دمه ، واصفر لونه ، واتسعت حدقتاه اتساعا مروعا ، وبدا عليه أنه يتأرجح على حافة هوة سحيقة ، يشهد فيها مصرع آماله كلها وهو حى . غير أنه تمالك نفسه ، واستنهض جاهدا ميت قواه ، وانقض على ولده وصاح :

ـ أنت ؟ !.. أنت أصبحت مارقا غادرا وخائنا ؟ !.. أنت أصبحت نصير المستعمر فى بلادنا ، وصنيعته فى قريتنا ، وجاسوسه الحقير المأجور علينا ؟ !.. تكلم .. أجب !

فأشاح الفتى بوجهه وصمت . ثم اندفع فى جرأة منكرة وقال :

ـ ما زال فى وسعى أن أنقذك وأنقذ أمى لو اقتديتما بى !

فصرخ الوالد الكهل :

ـ اخسأ .. فما أنت الا وغد !.. ابتعد .. انطلق من هنا !.. عليك اللعنـة .. عليك اللعنـة من صميم حسرتى وعذابى . عليك اللعنة من خالص حقدى وعجزى ومذلتى !

وأخفى وجهه بين راحتيه ثم انتفض وأهاب بزوجته :

ـ أعدى متاعنا يا امرأة ولنذهب !.. الوداع يا ماريا !

واندفع نحو العجوز وقبلها . ثم اتجه صوب النـافذة المفتوحة . وظل يسرح بصره فى الفضاء فترة ، ويستنشق ملء رئتيه هواء قريته العزيزة ، كأنه يودعها هى الأخرى !.. ولما أتمت روزين جمع متاعها ، وهمت بأن تميل بالرغم منها على ابنها الوحيـد لتقبله ، عاجلها الكهل بلفتة وحشـية مستنكرة ، ثم جذبها فى عنف ، وتقدم الجند ـ متبوعا بها ـ وخرج منصوب القامة ، مرفوع الرأس ، دون أن يلقى على ولده نظرة !

●●

● **وبعد** أن أوصد البـاب ، وسـاد فى الحجرة الملتمعـة بضوء الشمعة الكبيرة سكون شامل زافر ، **تحركت العجوز المعتوهة ، وتغير بغتة وجهها الداكن المصفر ، وزايله ـ فى مثل لمح الطرف ـ كل أثر للبلاهة والذهول والشرود . فهبت من مقعدها ، ودنت من الشاب ، وصاحت به وهى تهزه هزا متعاقبا ، وتردد :**

ـ خـذنى .. خذنى معـك !.. لن أذهب أبدا الى المستشفى .. أريد أن أعيش معك .. أن أعيش بجوارك .. أتعتقد أن امرأة مثلى كانت بالأمس القريب مثال العقل والقوة ، يمكن أن تصبح بين عشية وضحاها مجذوبة ومجنونة ؟..

انهم المجانين !.. أما أنا فقد تبت وندمت . عرفت ان الوطن خدعة ، والجهاد لوثة ، والاستقلال ضرب من المحال .. عرفت قيمة الحياة وأنا على حافة القبر .. ما كدت أقتل الضباط النمسويين الأربعة حتى ثبت الى رشدى ، ولمست حماقة فعلتى ، فاصطنعت الجنون كى أنجو من الموت وأعيش .. فدعنى أعيش معك يا كارلو وخذنى !.. أنت الحياة بأسرها اليوم فى نظرى .. سأحب زوجتك كما أحبك .. سأخدمها كما أخدمك . فلا تحرمنى من هذه النعمة يا كارلو وخذنى !.. خذنى اليها .. الى ايفونا .. انها تنتظرك ! لماذا تتردد ؟.. أتريد أن تجهز على .. أنت ؟.. ولدى ؟.. حبيبى ؟.. كل ما بقى لى ؟.. لا ، بل ضع ملابسك هنا .. ضعها فى هذه الحقيبة ولتمض .. نعم . هكذا .. آه .. أشكرك .. أشكرك وأقبلك ، أقبلك من صميم فؤادى !

وما ان انحنى الشاب على الحقيبة وطفق يدس فيها ملابسه ، حتى برقت عينا العجوز وتوترت عضلات وجهها ، وغافلت كارلو وهو مطمئن وانقضت عليه .. وقبل أن يتنبه أو يتحرك أو يحاول النهوض ، أسرعت فاختطفت غدارته من صداره ، وصوبتها الى وجهه ، وصاحت به وعيناها الجاحظتان تلمعان :

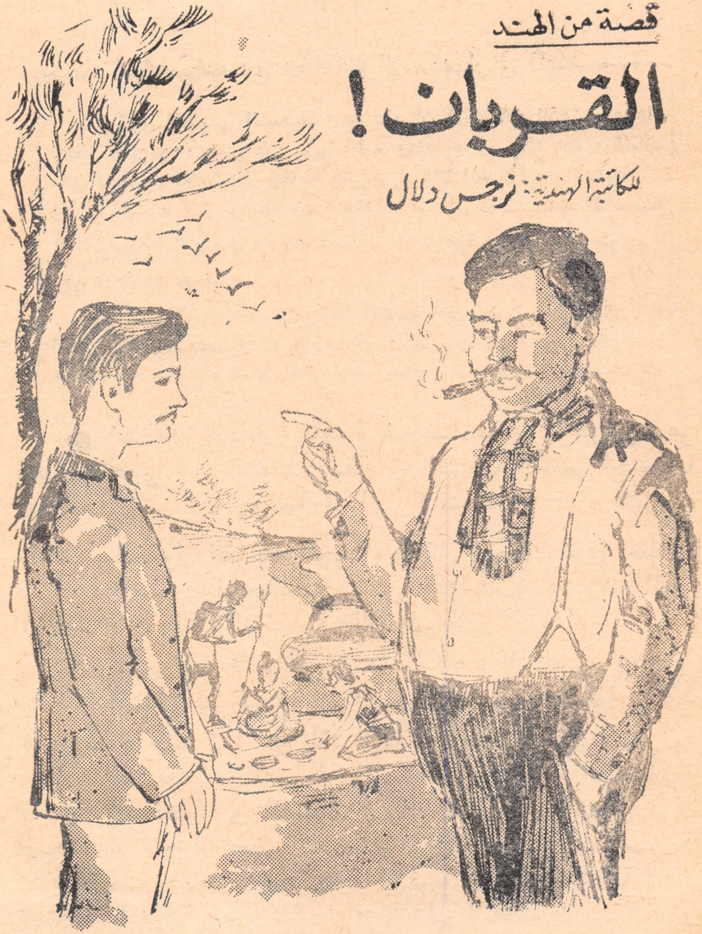
ــ أكنت حقا تظن أنى قد تبت مثلك عن الجهاد يا كارلو ؟ .. لن أتوب أبدا عن تأدية واجبى وفى صدرى نفس يتردد !.. انظر الى هذه الشمعة المتقدة .. لقد كنت أضيئها كل ليلة ، وأبقيها هنا ، بجوارى ، لأذكر فى وهج اللهب المقدس المندلع منهـا أن على ــ أنا العجوز الفانيـة ــ أن أجاهد أيضا ما استطعت ، فى سبيل بلادى ! أجل ، أنا ما اصطنعت الجنون

(البقية صفحة ٤٩)

قصة من الهند

القربان!

للكاتبة الهندية: نرجس دلال



ترجمة: ح ٠ ١

شخصيات من مخلفات الاستعمار فى الهند

من ذوى النفوس الضعيفة ، من يظن أن الانتساب للأجنبى مدعاة للفخر والزهو ، حتى على بنى وطنه وعنصره .. وقد عانت البلاد التى تعرضت للاستعمار وقاحة كثيرين من هذا الصنف من الادعياء .. وكانت الهنـد أكثر معاناة من سواها ، اذ كان الانتسـاب للجنسية « البريطانية » مبعث عجرفة وصلف أن حرموا من الاعتزاز بلونهم ومن الاعتداد بقوميتهم ..

وفى هذه القصة ، تصور لنا الكاتبة الهندية « دلال نرجس » احدى هذه الشخصيات ، فى أحداث جمعت بين الواقعية والخرافة !

● **انطلقت** السيارة ناشرة ضوضاءها فوق طريق وعر يغطيه الحصى ، وقد علت طبقة من التراب الأسمر أجنحتها وغطاءها وسـائر أجزائها ، التى كانت تتلألأ قبل قليل .

وامتدت الحقول القاحلة الجرداء فى كل الجهات ، فى أخاديد متكلسة ، حتى سفوح الجبال التى لفتها غلالة من وهج الحر .. غلالة خفيفة كالدخان ، مائلة الى الزرقة .

ولم يكن السيد « تريانا » يكف عن التطلع ـ وهو فى جلسته المريحة ـ الى ما حوله من مناظر تلك المنطقة . لقد قام برحلته هذه كى يرى بلاد الهند ، وقد عقد العزم على أن يشاهد منها بقدر ما أنفق على الرحلة .. فرأى المراعى الغنية والروابى الخضراء فى الشمال ، وشاهد مزارع الشاى فوق المنحدرات ، وزار بعض المعـاهد والأطلال ، ورأى السدود التى أقيمت حديثا . وها هوذا يرغب فى زيارة المنطقة التى تجتاحها المجاعة .. **وكان حريصا على التقاط بعض الصور**

لبعض النسوة الهزيلات ، بأثدائهن المدلاة كالقرب ، ولبعض الأطفال الذين ضمرت أعضاؤهم هزالا ، وانتفخت بطونهم فى بشاعة تستحق التسجيل .. فسوف ينشر هذه الصور فى صحيفته لدى عودته مباشرة .. ولسوف يكون لهذا دوى صحفى مثير ، ومن ثم فقد حرص على أن تكون الصور بالغة الدقة والوضوح .

أما ركاب السيارة الآخروين ، فلم يبدو عليهم أنهم يشاركونه قدرا يذكر من حماسه . على أن هذا لم يكن ليعكر مزاج السيد « تريانا » على الاطلاق ، فما من شىء يستطيع أن يصرفه عن غرضه . وكانت الحرارة تنقض عليهم — بلا هوادة — من خلال النوافذ الزجاجية المغلقة .. حرارة لا تكاد تطاق !.. وكانت الأتربة تنفذ من بعض الشقوق الخفية — فى السيارة — فتنتشر على جلد المقاعد الفاخر !

وراحت صغرى السيدتين تجفف العرق عن جبينها ، وهى مستلقية فى استرخاء على مقعدها الوثير . كانت ذات وجه نضير أملس ، على الرغم مما تركه الارهاق على ملامحها من علامات .. سوداء الشعر ، يتراقص فى عينيها فيض من الأشعة الذهبية .. ولعلها كانت فى الثلاثين من عمرها ..

أما السيدة الأخرى — وهى شقيقة السيد « تريانا » — فكانت أكبر سنا ، وقد تهالكت فى أحد أركان العربة ، فاغرة الفم ، متجهمة ، تغفو فى نعاس مضطرب ، وقد علتها طبقة رقيقة من الأتربة غطت شعرها ووجهها وعينيها ، وتراكمت فوق حاجبيها وأهدابها .. وكأنها أحد مقاعد العربة !.. ولم يكن يلوح عليها أنها تدرك شيئا مما حولها !

أما السائق فكان شابا هندوكيا ، ذا رسغين نحيلين مرنين ، وقد أمسكت يداه الرقيقتان بعجلة قيادة السيارة الضخمة بيسر ، وأخذتا توجهانها دون جهد واضح . وكان

هو الشخص الوحيد الذى لم يعانى وطأة حرارة الجو .. ولقد كان يعمل ضابطا من قبل ، وقد أعير للسيد « تريانا » طوال فترة الرحلة ، على أن يقوم — فى نفس الوقت — بدور المرشد والمساعد . ولم يكن يفتح فمه على الاطلاق ، اللهم الا ليشير فى عبارات موجزة الى ما هو مثير فى تلك المنطقة من مواقع !

● ●

● **ومال** نحوه السيد « تريانا » ، قائلا :

— اسمع يا « بريتام » ، ابحث لنا عن ركن نستطيع أن نتوقف فيه ، لتناول الغداء !.. يطيب لى أن أصيب شيئا من الطعام !

وأومأ « بريتام » بحركة من رأسه توحى بأنه قد سمع ، وان لم يحول عينيه عن الطريق ..

وأحنق ذلك السيد « تريانا » ، الذى لم يكن يحب الهندوكيين ، لا سيما الصموتين منهم .. كان ميالا الى الثرثرة ، قصير القامة ، ضخم الجسم ، ذا عضلات قوية ثقيلة ، نحاسى البشرة . **وكان شديد الزهو باعلان جنسيته الانجليزية ، لا يكف عن أن يلوح بجواز سفر بريطانى ليؤيد دعواه .. وربما كان هناك خطأ ما ، فان جواز السفر البريطانى — الذى كان السيد « تريانا » يحمله — لم يحل دون أن تكون بشرة الرجل داكنة كبشرة « بريتام » ، أو أن تكون عيناه صغيرتين سوداوين براقتين ، أو أن يكون ذا شعر طويل أسود ، يلمع بفضل ما كان يعلوه من « بريانتين » ..** كان حريصا دائما على العودة الى طرق هذا الموضوع ما أمكنه ، شأن من يريدون أن يؤكدوا انتماءهم الى أصل مشكوك فيه !.. وما أشد ما كان ينتابه من « حنين » حين يتحدث عن « وطنه » — بريطانيا ! — وتفوق هذا الوطن على

غيره من الأوطان . كانت الشعوب الملونة جميعا ـ شعوب ذوى البشرة الصفراء والنحاسية والآبنوسية ـ لا تعدو فى رأيه أن تكون سلالات زنجية اعتاد أن يختصها بمشاعر الازدراء . وكان دائم السخرية بكل ما يراه ، ينتقده بلسان حاد .. وكم امتلأت بالغبطة الخبيثة نفسه لكل ما كان يمر به من قرى يسودها الخراب والجدب ، حتى أنه كان يفرك يديه اعلانا عن سعادته !.. ولعله كان يتصور ، وهو يحشر نفسه فى زمرة الانجليز ، أن باستطاعته أن يغير من لون بشرته وشكل عينيه ! !

لكم تساءل « بريتام » ـ الضابط السابق بسلاح المدفعية ـ ساخرا عما عسى أن يكون مسقط رأس هذا السيد « تريانا » .. لعله ولد تحت سماء فى مثل زرقة هذه السماء ، وفى مناخ أشد حرارة من هذا المناخ .. **بيد أن « بريتام » كان حريصا على أن يقف موقفا سلبيا ، وكان ما يتمتع به من دماثة خلق يحمله على ألا يدع أية فرصة لاظهار ما كان يجد من تسلية وفكاهة حيال تعاظم السيد « تريانا » وادعائه !**

وانحرفت السيارة الضخمة عن الطريق لتصل الى تل كان يبدو ـ عن بعد ـ كأنه كومة قبيحة من الأحجار . وهنالك ، اكتشفوا حصنا مهجورا ، يستطيع المرء أن يجد بداخله ملاذا من وطأة الشمس ، وأن يعثر فيه على مكان رطب تستروح فيه النفس من شر هذا الهجير !

وخرج الجميع من السيارة يتمطون فى اغتباط لأول مناسبة سنحت لهم للحركة .. وتثاءبت الفتاة ، ورفعت ذراعيها الى ما فوق رأسها ، كقطة صغيرة كسول . وأخذ السيد « تريانا » ـ الذى لم يكن يحول عنها عينيه ـ يمر بطرف لسانه فوق شفتيه الغليظتين ، ويدنو منها ليمسك

بذراعهـا العارية بين أصـابعه الضخمة .. ثم قال لها فى تلطف : « أسرعى الى الظل يا هيلين ! »

وقرص ذراعها ، وهو مستمر فى مزاحه : « كيف يكون حالنا ، اذا أنت أصبت بضربة شمس .. هه ؟ »

وابتعدت عنه الفتاة فى فتور ، ودخلت الى الحصن وراء السـيدة الأخرى .. الواقـع أنهـا لم تكن تحب السـيد « تريانا » ، ولكن وضعها ــ كمرافقة للسيدة « جوردان » شقيقته ــ كان يحتم عليها أن تحتمل الكثير مما لا يروقهـا منه .. وكان وقت النـدم على قبولها هذا الوضع قد انقضى !

وتوقفت خلفهم عربة نقل صـغيرة ، كانت تتبعهم على مسافة كافية ، فنزل خادمان وأخرجا منها سلالا ، وبسطا بعض المفارش ، وأعدا المائدة فى حرص ومهارة ينمان عن حذق لمهنتهما .

● ●

● **وما لبثت** السيدة « جوردان » ــ التى ظلت أثنـاء هذه الاستعدادات صامتة ، وان راحت تتأمل الغـذاء بعين نهمة ــ فقد انقضت على كومة الشطار بيد متلهفة ، وراحت تلتهم منها بنشوة وشره .. بينما كانت « هيلين » ترقبها بشعور مزيج من الشفقة والاشمئزاز . وانتحى « بريتـام » جانبا ، وقد بدا على سجيته ، فى قميصه الأزرق ذى الياقة المفتـوحة .. وتجلى على وجهـه ذلك التعبير الذى ظل يلازمه ، والذى كان ينم عن البرود والتباعد ، وكأنه كان يرجو بذلك أن يقيم حاجزا بينه وبين الباقين .

لم يكن السيد « تريانا » يكف عن اثارته طوال فترة الرحلة . وقد ظل يضـايقه بالملاحظات المحرجة عن عادات الشعب الهندوكى ومعتقداته ، ولكن « بريتام » ظل ــ من

ناحيته ـ ثابت الجنان لا يتأثر . وكان موقفه هذا مما أثار حيرة ((هيلين)) ، فقد كان عدم اكتراثه يحنقها تارة ، ويحملها على الاعجاب به ـ تارة أخرى ـ لما كان ينم عنه من سيطرة على النفس .. سيطرة تفوق كل تصور ! وقد دفع هدوء ((بريتام)) السيد ((تريانا)) الى ذروة السخط ، فى النهاية ، فصاح يعلن بازدراء :

ـ بلد رائع !.. يمكن أن يقال انكم قد بلغتم درجة من النضج تؤهلكم للتمتع بالاستقلال .. أو بتعبير آخر ، يمكن أن يقال أنها تبيح لكم الحق فى أن تموتوا جوعا فى سلام .. دون أن يؤذن لأحد بالتدخل فى شئونكم !!.

ولكن ((بريتام)) ظل على صمته .. وهنا انتابت السيد ((تريانا)) نوبة حنق بارد ، وكأنما عقد العزم على أن يفعل أى شىء من شأنه أن يحدث استجابة لاثاراته .. كان يريد أن يرى الغضب يزيح ذلك القناع ـ الذى لم يكن يملك أن ينفذ خلاله الى ما فى نفس الرجل ـ ويصبغ هذه البشرة السمراء بحمرته ، ويشعل الشرر فى هاتين العينين اللتين كان هدوء نظراتهما أسوأ أثرا من الاهانة . لذلك طوح بذراعه فى اتجاه القرية القاحلة ، وفى اتجاه الأرض التى كانت تتشقق جدبا تحت الشمس ، قائلا :

ـ فيضانات ، مجاعات ، فساد ، رشوة ، زيادة فى السكان ، نتيجة رائعة !.. هه ؟ ان أحد لم يستطع ـ منذ غادرنا هذه البلاد ـ أن يفرض أى قدر من النظام .. ليس لديكم من معنى كلمة الحكومة سوى الثرثرة الفارغة ، ينساق اليها بعض الساسة الذين أسكرتهم نشوة السلطان !.. كيف تجرؤون على المساهمة فى جلسات مجلس الأمن ؟ .. كيف تتأتى لكم الفحة لتقدموا للعالم ارشادات من عندكم وتوجيهات ... أنتم يا من تتخبطون فى أبشع ألوان الفوضى ؟.. يالها

من وقاحة لا تطاق ، أن يندفع أناس فى ابداء النصح والدعوة للنظام ، وهم لا يعرفون كيف يوجهون دفة زورقهم !

وفى لمحة خاطفة كأنها وميض البرق ، لاح أن « بريتام » يوشك أن يهم بالانقضاض على السيد « تريانا » ، فيقبض بأصابعه الطويلة على عنقه ، ويضغط بكل قواه . ولكن يديه المتوترتين ارتدتا بسرعة ، وقال بلهجته الانجليزية التى لا تشوبها شائبة :

ــ أظن أن وقت الرحيل قد حان ، اذا أردنا أن نصل الى « الشاليه » قبل حلول الليل !

● ●

● **وكانت** السيدة « جوردان » تنقل بصرها بين الرجلين ، والقلق يرسم على وجهها تعبيرا يزيد من معالم البلاهة التى تعلو أساريرها .. وما لبثت أن قالت بلهجة تنم عن التوفيق والمصالحة :

ــ سيد « بريتام » ، أليس عندك من معلومات مثيرة تود اطلاعنا عليها ، بشأن هذا الحصن ؟

وتطلع اليها « بريتام » ، ثم ابتسم قائلا :

ــ انه ليس سوى حصن قديم بلا تاريخ .. على أنه من المعلومات الطريفة ، ان لدى القرى المجاورة عادة جديرة بالذكر ، تتمثل فى أن يقدم السكان الى اله المطر قرابين بشرية .. **وبدا أن القانون ــ فى أيامنا هذه ــ يحرم بالطبع مثل هذه العادات ، فان كثيرا من الفلاحين ــ من سكان المنطقة ــ يعتقدون اعتقادا راسخا ، أنهم ما كانوا ليواجهون هذه المجاعة لو أنهم قدموا الى الآله قربانا !**

فأطلقت السيدة « جوردان » صيحة خفيفة ، تنم عن الانفعال والرعب ، وهتفت :

ـ أتعنى انهم كانوا يتقربون الى الآله بمخلوقات بشرية حقـا ؟

وأردفت هيلين : « يا الله !.. هذا غير معقول ! »

فهز « بريتام » كتفيـه ، وهو يجلس الى عجلة القيادة ، وقال :

ـ عجبا !.. هذه ليست سوى وسيلة من الوسـائل لمواجهة الأمور . انهم يضحون بكائن بشرى فى سبيل انقاذ حياة المئات من الآدميين .. وفى الوقت ذاته ، نحن هنـا نرى أن من البشاعة ارسال الناس الى بلد أجنبى ، بهدف قتل اناس آخرين لا يكنون لهم شيئا من العداء !.. وعلى أية حال ، فان هذه العادة قد انقرضت منذ عهد بعيد .

وصرخ السيد « تريانا » بلهجة غاضبة :

ـ هل تتطاول فتقارن تلك الشعائر الوحشـية ، التى تؤديها قبيلة بدائية جاهلة ، بالحملات التى تنظم تنظيما دقيقا فى الحروب الحديثة ؟

وقال « بريتام » فى نفسه ، وقد بلغ به الضيق مبلغـه : « ها هو ذا يعيـد الكرة ! » .. ولكنه بذل جهـدا جبارا للسيطرة على نفسه .

كانت السيارة تسير ببطء فى طريقها المرسوم ، فصرف ذهنه الى تأمل روعة الآلات الحديثة .. قد لا تواتيه الفرصة ـ بعد اليوم ـ ليقود سيارة لها مثل هذه الروعة والمرونة . وراح ـ وهو مقطب الجبين ـ يركز كل اهتمامه على الطريق .. ترى بالله ، ماذا سيتاح لهـذا الكائن المترهل أن ينشر فى صحيفته ؟

كانت الحقول العارية ـ التى ألهبتها الشمس وأجدبتها ـ تتتابع فى خط واحد ، على مـدى البصر .. وعلى مسافات متباعدة ، كانت الأبصار تلتقى بهيكل شجرة وحيدة ، تمتـد أغصانهـا الى السماء ، أو مجموعات صغيرة من الأكـواخ

المتناثرة ، عبر تلك المساحات المترامية الموحشة .. ولكنها لم تكن تقع على كائن بشرى ، وكأنما لم يقدر لمخلوق من الأحياء أن يخاطر ويتوغل فى هذه الصحراء !

● ●

● **وأخيرا** بلغوا « الشاليه » . وعند عتبة « الفيراندا » ، ظهر كهل بادى النعاس ، راح يتأمل السيارة الفارهة وركابها فى بلاهة .. كان المسكن نموذجا لمأوى كلاسيكى : أثاث عتيق تغطيه الأتربة ويخيم عليه نسيج العنكبوت ، وحشيات يسمع صرير زنبركاتها المحطمة . وأسرع القوم ينشرون الملاءات النظيفة ، قبل الشروع فى اتخاذ الترتيبات الخاصة بوجبة المساء .

وأقبل على المكان بعض الأهالى الشاحبين ، النحاف ، فى أسمال بالية ، وقد اجتذبتهم أنوار المصابيح والضوضاء والحركات غير العادية ، فراحوا يحومون حول « الشاليه » . **وكانت « هيلين » أول من رآهم ، فأطلقت صيحة قصيرة ، تنبه بها رفاقها . ولمحوا بعض الأطفال .. كائنات صغيرة تثير الشفقة ، اذ ضمرت أعضاؤهم ، وانتفخت بطونهم ، وراحوا يتأملون الغرباء بنظرات ثابتة ، لا تشى بشىء .. نظرات كانت تنبعث من عيون واسعة ، ذوى بهاؤها !**

وغمغمت « هيلين » وقد غص حلقها : « اواه !.. يا للصغار المساكين ! »

بيد أن السيد « تريانا » أخذ يفرك كفيه ، وقد بدت عليه علامات الاغتباط .. وقال :

ـ أنا على يقين من اننى سأحصل على ما أبتغيه من صور مثيرة !

والتفت الى « بريتام » ، قائلا : « اخبرهم بأننى أريد أن يحضروا غدا ، لألتقط لهم بعض الصور الفوتوغرافية !.. وقل لهم أن يحضروا معهم أنحف نساء المنطقة وأشدهن

ضمورا .. نسوة يعطين الاحساس بالموت جوعا !.. انك تفهم ما أعنى .. قل لهم انى سأمنحهم بقشيشا طيبا ! »

ونطق « بريتام » ببعض الألفاظ السريعة مخاطبا أكبر الرجال سنا . واتجهت نظرات الشيخ الى السيد « تريانا » ، فظل يتأمله محدقا فيه لحظات طويلة ، حتى اضطرب السيد « تريانا » ، وأحس بالارتباك ، فأخذ يردد : « ماذا أصابه ؟.. ألم يفهم ؟.. أم ماذا ؟ »

ودمدم المواطن مخاطبا « بريتام » بشىء ما ، فقام هذا بترجمة حديثه :

ـ صباح غد ، عند شروق الشمس ، عليك أن تذهب الى أكواخهم ، وسيعرض عليك هؤلاء القوم كل ما تحب أن تراه ! .. هل تحب أن توجه أسئلة أخرى ؟

فقال « تريانا » بلهجة مفعمة بالاغتباط : « قل لهم اننى أحب أن أشهد عملية تقديم قربان بشرى ! » .. وراح يطلق قهقهة صاخبة .. فرمقه « بريتام » فى صمت أخرس ضحك الرجل فى حلقه ، بينما تسلل الأهالى فى طيات الظلام .

● ●

● **وعندما** أعد العشاء ، اتخذ أفراد الجماعة الصغيرة أماكنهم الى المائدة .. كانت وجبة رائعة ، تشهد بما لصناعة الأغذية المحفوظة من أفضال .. وتناولوا بعدها أكوابا من القهوة المسكرة ، الممزوجة باللبن .

وكانت ((هيلين)) ـ خلال الغداء ـ تأكل بطرف شفتيها . وحين رفعت عينيها ، لاحظت أن ((بريتام)) لم يمس أى طبق من الطعام ، بل انصرف الى احتساء قهوته فى رشفات صغيرة ، غافلا عما حوله ، وقد شردت نظرته بعيدا فوق رؤوس الموجودين .. وكانت السيدة « جوردان » فريسة للتوجس ، فأخذت تقضم الطعام دون اقبال عليه ، وهى

تتلفت نحو النوافذ ـ من آن الى آخر ـ بنظرات قلقة ، تسائل الظلام الذى كان يلف الشاليه ، وكأنها تخشى ظهور عينين لامعتين فى وجه هزيل !

أما السيد « تريانا » ، فأخذ يأكل بارتياح تام ، متذوقا كل الأصناف ، مجففا شفتيه بمنشفة ناصعة البياض ، ملتهما كميات ضخمة من الطعام .

وعندما بدت طلائع الفجر التالى ، كان السيد « تريانا » على أهبة الاستعداد .. وكان الجو ينذر بيوم قائظ ، والسماء شديدة الزرقة . وعلى البعد ، كان الناظر يمينا يلمح مجموعة من الأشجار قرب بئر جافة .. وكانت الأبصار ترتد دائما الى هذا المكان ، تجذبها اليه قوة خفية لا سبيل الى مقاومتها .

وقام السيد « تريانا » باعداد آلة التصوير ، وعلقها الى عنقه بسير من الجلد ، ثم قال :

ـ حسن !.. قم معى « يا بريتام » !

وأجاب « بريتام » فى برود : « كلا . لن أذهب ! »

ولو ان أحدا رأى السيد « تريانا » ـ اذ ذاك ـ لخيل اليه أنه لن يلبث أن يصاب بسكتة قلبية . وكرر الشاب ، بنفس اللهجة اللامبالية ، قوله : « لن آتى !. انني أتقاضى أجرى لأريك البلد فحسب !.. وهذا هو كل عملى ! »

● ●

● **مكث** السيد « تريانا » مسمرا فى مكانه ، وقد أخرسه الذهول ، وغاب عن وجهه كل اشراق .. وكان الجهد ـ الذى راح يبذله كى يكتم غضبه ـ يزيد من انتفاخ شرايين رقبته وصدغيه .. ثم وضع قبعته فوق رأسه ، دون أن يضيف كلمة واحدة ، وسط الضوء الباهر الذى كان يغمر السهول .

وانقضت عليه حرارة الجو دفعة واحدة ، فى قسوة

لا ترحم ، ولكنه لم يعرها أى اهتمام .. كان الحنق والسخط يهدران فى داخله !.. وكانت الأرض الوعرة تحيل سيره تعثرا . والمحصولات القليلة توشك - تحت لفح الشمس - أن تذبل فى حقولها . وكان مجرى النهر قد جف من أمد بعيد وتراكمت فيه الرمال . **وأخذ السيد ((تريانا)) يتعثر فى مشيته - من وقت لآخر - فيتناثر السباب خافتا من بين أسنانه . وشعر بأن ثيابه - على رقتها - ثقيلة جدا ، لا تتناسب مع حرارة الجو ، فقد أخذ العرق يتفجر من جسمه غزيرا ، فيغمره ويملأ سترته بقعا مبتلة .. وعلى مقربة من القرية ، أخرج من جيبه منديلا مضمخا بالعطر ، فجفف به وجهه .**

كان ثمة رجال ونساء راقدون أمام الأكواخ ، أو على عتبات الأبواب ، وكأنهم غابوا فى سبات مخيف .. ولم يكن من اليسير - لأول وهلة - أن يميز الانسان بين الشباب منهم والشيوخ ، من فرط ما فعل العذاب والجوع بوجوههم .. ولم يأت أحدهم بأدنى حركة ، عند اقتراب السيد ((تريانا)) ، وان بدت عيونهم - التى كانت تتقد محمومة - مفتحة ، وقد اتجهت نحوه ، تحملق فيه !

واتخذ السيد ((تريانا)) الطف مظهر له ، اذ كان بازاء موقف فريد تماما .. كانت سحنهم تبعث على الذهول . يالها من مجموعة صور مثيرة سيحدث نشرها فى صحيفته دويا هائلا !!

وفى رقة مصطنعة ، مال السيد ((تريانا)) على سيدة شابة منبطحة فوق التراب ، شبه عارية ، وهى تحتضن طفلا وليدا . وازداد السيد ((تريانا)) انحناء عليها ، وأخذ يتفحص الطفل بعناية .. كان ميتا !.. وكان لايزال فاغرا شفتيه ، وكأنه كان يصر - حتى بعد الموت - على طلب الزاد !

ووضع السيد « تريانا » يده الغليظـــة فوق كتف الأم الهزيلة البادية العظام .. كل ما كان يبغيه هو أن تخرج الأم من منطقة الظل ، كي يلتقط لهـا صورة فوتوغرافية . ولكن حركته فجرت في ذلك الجو الســاخن ما يشبه الصدمة الكهربائية ، فتراجع الى الوراء خطوة ، وتطلـع الى ما يدور حــوله !..

كان الرجال والنساء جميعا قد نهضوا في حركة واحـدة مرنة ، وفي صمت ، كأنهم أشــباح في حـلم مزعج .. كانت المساكن قائمة على ثلاثة أضلاع من منطقة مربعة .. أما الضلع الرابع ، فكان المخرج الوحيد من القرية .. وعند هذا المخرج، تجمع القوم كشخصيات في أحد ((الباليهات)) الخرافيـة ، فقطعوا بذلك خط الرجعة على السيد ((تريانا)) .. وأخذوا يتقـدمون نحـوه في صمت رهيب ! ورأى السيد « تريانا » عشرات النظرات المتقــدة مسلطة عليه .. نظرات تنم عن تصميم لا يرد . ومضـــوا يقتربون ، ويقتربون ، ويزدادون اقترابا !

وسرت في أوصاله رعشة رعب .. وراح يتراجع ــ وقد استسلم للخوف بدافع غريزي ــ حتى أحس بجدار ساخن خلفه ، فاستند اليه . محال أن يمضي الى أبعد من هذا !.. ومن كل الجهات حوله ، ظلت ترمقـه عيون قريبة ، يصليه بريقها ويحطمه ..عيون داكنة ، في وجوه داكنة ، غامضـة ، قاسية ، ملتهبـــة !

ها هوذا يشتم رائحتهم !.. كان كمن يترقب نهايتـه ، دون أن يأتي بمجرد حركة يدفع بها عن نفسه . وبيد مرتعدة فتح سترته ، وأخرج من جيبه حافظة منتفخة بأوراق النقد .. وتلعثم قائلا وهو ينزع حفنـة من الأوراق الماليـة التي بسطها :

ــ خذوا !.. هذه لكم !!

وسقطت الأوراق من يده وديست بالأقدام . وأجهز هذا الاحتقار ـ الذى قوبل به المال ـ على أعصابه وحطمها نهائيا ، فانهار .. وصرخ : « النجدة ! » .. ولكن صوته ارتد اليه مرتعشا ، بالغ الضعف !

ـ النجدة ! النجدة !

العيون !.. الوجوه !.. كل شىء ضده !.. وبغتة برزت أطراف الخناجر تومض شررا تحت أشعة الشمس . صرخة مكروب .. حادة ومتصلة !.. وفى السماء ذات الشمس الحارقة ، شرعت العقبان تحوم .. بلا عجلة !..

وفى « الشاليه » : انقضى النهار ببطء ، ولم يظهر السيد « تريانا » وقت الغداء ، ولكن احدا لم يسرف فى القلق عليه ، وان كانت دقات الطبول الأولى ، قد أثارت فى نفوسهم شعورا غامضا بعدم الارتياح .. اذ كانت دقات الطبول تتصاعد ـ وسط وهج القيظ ـ بطيئة فى البداية ، كأنها وجيب قلب هامد .. ثم أخذت تزداد سرعة وشدة ، حتى أصبحت تدوى بوحشية ضارية .. وسرعان ما امتلأ الجو كله بهذه الدقات الظافرة ، يصاحبها ترنيم رتيب ، رهيب !

● ●

● **وتناهت** كل هذه الضوضاء الى الجالسين فى « الشاليه » ، فأخذ تتابعها السريع يلقى فى قلوبهم رعبا لا سبيل الى وصفه !

وعندما قرروا ـ أخيرا ـ أن يخرجوا للبحث عن السيد « تريانا » ، وجدوا الطبول تحاصرهم من كل اتجاه .. شعروا بها أمامهم ، وخلفهم .. وكانت تدور ، وتدوى ، فى نشوة عاطفة بدائية هوجاء !

ولم ير أحد السيد « تريانا » ، بل اصطدمت أبصارهم بوجوه خالية من كل تعبير .. وجوه جامدة ، لا سبيل الى

النفاذ الى ما ورائها .. وكأنما أصيب أهل القرية بالعمى ، فلم يكونوا يبصرون .. وبالصمم ، فلم يعودوا يسمعون !

ولم يلح الأغراب في سؤال القوم .. وما كانت بهم حاجة الى السؤال ، اذ أن المخاوف التى خامرتهم ، سرعان ما تجسدت أمام أبصارهم .. جسدها منظر الطيور السوداء تحوم فى السماء ، ثم تحط على مكان قريب .. وسعوا الى ذلك المكان ، فانزعجت الطيور الجارحة ، وطارت .. وتبين الأغراب أنها كانت تحط على جثة السيد « تريانا » .. والحق أنهم لم يتعرفوا على الجثة الا بالحدس .. أو ما يشبه الحدس !

ودثروه فى ملاءة بيضاء ، ورفعوه الى سيارة النقل الصغيرة .. وكانت السيدة « جوردان » تئن بصوت واهن مبحوح .. وراحت « هيلين » تتطلع ــ وقد نضبت دماء وجهها ــ الى « بريتام » ، وكأنها تهم بأن توجه اليه سؤالا ما !

ولم يكن « بريتام » قد فقد شيئا من هدوئه ، مما مكنه من أن يعجل باتخاذ التدابير للرحيل ..

وعندما هموا بمغادرة المكان ، بدأت الأمطار تتساقط .. نقاط ضخمة ، ثقيلة ، وأخذت تزداد غزارة ، حتى تحولت الى سيل تدفق فوق سقف السيارة ، بينما كان قصف الرعود يتتابع فى هدير !

وتطلع الثلاثة الذين كانوا فى السيارة ، كل الى الآخر ، فى صمت ..

ومن خلال خرير المياه المتدفقة وهزيم الرعود ، ظلوا يسمعون دقات الطبول المنتصرة ، الظافرة ، وكأنها تنبعث من أحشاء الأرض ذاتها .. الأرض الجائعة ، التى أخذت قوتها تعود اليها من جديد ، فى تلك اللحظات !

قصة من اليابان

الابن والأم !

للقصصي الياباني :
چواران هيزاءو



ترجمة : حمادة ابراهيم

لا يفلح الاستعمار فى تغيير الشعوب العريقة !

تتعمد دعايات مغرضة أن تصور للرأى العام العالمى ، ان الشعب اليابانى قد تغير تحت الاحتـــلال الامريكى ، وتخلى عن حضارته العريقة ، وتقاليده التى كانت مصدر فخر واعتزاز لليابان ..

ولكن القصة الانسانية ، التى يقدمها « كتابى » على هـــذه الصفحات ، والتى كتبها قصـــاص يابانى شاب ، هو « جواران هيزاءو » ، تؤكد – فى وضوح – أن الشخصية اليابانية ما زالت قائمة خلف أستار المظاهر ، وأن حضارة اليابان وتقاليدها لا تزال مكينة متأصلة .. حتى فى نفوس الاطفال !

● **تلقى** مدرس الصف الأول باحدى المدارس الابتدائية، الواقعة بالقرب من المعسكر الأمريكى ، استدعاء من الشرطـــة المحلية فى (أستوجى) ، بصـــدد أمر يتعلق بأحد تلاميذه .. وحين كان فى حجرة الانتظار ، دخل المأمور ، وتبعته سـيدة تتألق عيناها بحيوية طاغية أثارت دهشة المدرس .. وقدمها المأمور اليه قائلا ، وهو يجلس فى مواجهته : « آسف لازعاجك .. الآنسة مشرفة اجتماعية ، تهتم باصلاح الشبيبة فى المدينة .. ولما كان قسم الشرطة التابع لنا قد أنشىء حديثا ، وليس لدينا قسم خاص بالأحداث ، فقد طلبنا الى الآنسة أن تجىء لمعاونتنا .. وأود أن أخبرك بأن الموضوع الذى استدعيناك من أجله ليس خطيرا ، فلا داعى لأن تقلق ! »

وتدخلت المشرفة قائلة « ان الموضوع كما ذكر السيد المأمور ليس خطيرا فى حد ذاته .. فان تلميذك لم يرتكب — فى الواقع — جريمة كبرى .. **كل ما هنالك أنه قام باشعال النار فى حصن قديم ، ولكن بعض المهمات المملوكة للأمريكيين كانت مودعة فى هذا الحصن ، ونحن بالطبع نشك فى أن يكون هذا الغلام قد أشعل النار متعمدا .. لابد أنه كان يلعب لعبة القراصنة ، أو أى شىء من هــذا القبيل .. غير أنه يرفض باصرار أن يفتح فمه ، ونحن فى حاجة الى أى عذر أو تعليل نذكره فى التحقيق !**

وقال المأمور : « اننا لا نريد أن نحتجزه هنا أكثر ممــا احتجزناه ، ولكننا لا نستطيع أن نخلى سبيله ما دام التحقيق لم ينته ، ولذلك طلبنا اليك الحضور ، فأنت معلمه ، ولابد أنك تعرف عنه ما يزودنا ببعض المعلومات عن طباعه ، وعن حياته العائلية ، وما الى ذلك .. ومن ثم تستطيع أن تكتب تقريرا بنتيجة التحقيق ، ونطلق سراحه » .

فانحنى المدرس فى أدب وقال : « لا يسعنى الا أن أشكر لك المشقة التى تتجشمها من أجل هذا الطفل » .. فقــال المأمور : « لندخل فى الموضوع ! »

● ●

● **وفتحت** المشرفة ملفا ، وأخــذت تقرأ بعض ما جاء فيــه :

« ثارو تزومى .. ستة عشر عاما وشــهران .. ولد فى (سايبان) ، وهو الآن بالفصل الدراسى الثانى من الســـنة الأولى بمدرسة « سان جوزيف » الابتدائية .. ويتمتـــع بمنحة « أدان » الدراسية .. كان والده يعمـــل خبيرا فى الارصاد ، لحساب مكتب الادارة اليابانى ، وتوفى عام ١٩٤٠ . **أما أمه فكانت موظفة فى شركة « نانيو كاهاتو » ، ومن المرجح**

انها لقيت مصرعها عند استيلاء الأمريكيين على (سايبان) .. »

ثم وجهت المشرفة الكلام الى المدرس قائلة : « كيف يكون « ثارو » فى مثل هذه السن ، ولا يزال فى الصف الأول ؟.. انه متأخر . أليس كذلك ؟ »

فقال المدرس : « عند انتهاء الحرب ، أرسل « ثارو » الى (هاواى) مع مجموعة من الأيتام ، وألحق باحدى المدارس الأمريكية التى تكاد أن تكون معادلة لمدارسنا الابتدائية . وقد قضى بها ست سنوات ، جاء بعدها الى اليـابان ، وسجل بمدرسة « سان جوزيف » .. وكان من المفروض أن يلتحق بالصف الخامس ، الا أن معرفته باللغـة اليابانيـة لم تكن كافية .. »

ــ ماذا تقصد بمنحة « أدان » ؟

ــ انها ليست منحة بالمعنى الدقيق .. كان « ادان » ضابط استعلامات أمريكيا مسئولا عن الأيتام فى (سايبان) ، فاختار منهم خمسة ، تكفل هو شخصيا بنفقات دراستهم ، بشرط أن يتجهوا فيما بعـد الى دراسـة علم اللاهوت .. ولدينا ثلاثة من هؤلاء الأطفال فى مدرسة « سان جوزيف » .

ــ عندما مات والد « ثارو » ، كان الطفل فى الرابعة من عمره .. فالأرجح أنه لا يتذكره . أما أمه ، فهل تستطيع أن تحدثنا عن أى صنف من النساء كانت ؟

كانت من ذلك الصنف من النساء الذى يمكن أن نسميه بالنساء المثقفات .. فقد كانت حاصلة على شهادة من جامعة (طوكيو) ، وكانت مديرة الموظفات بالشركة التى كانت تعمل بها فى (سايبان) .. **ولكنها بعـد ذلك قامت بانشـاء مركز للترفيه عن الضباط يسمى « هاللو » .. وكانت جميـلة جدا ، بل لعلها مفرطة الجمال .. فكانت النساء يكرهنها !**

ــ وهل كان الطفل يعيش فى هذا الوسط ؟

ـ كلا ، فقد ذكرت لك أن أمه كانت مفرطة الجمال ، ومن ثم كانت فرصـــة اللهو والمتعة كثيرة أمامهـا ، فكانت مشغولة لدرجة لا تستطيع معها أن تهتم بالطفل . ولذلك عهدت الى مبشر فى احدى جزر المحيط الهادى ، كان يعيش هناك منذ أيام سيطرة الألمان على تلك الجزر !

ـ اذن ، فالطفل لم يتأثر ـ أيما تأثير ـ بالحياة التى كانت تحياها أمه ؟

ـ كلا ، بل انه يجهل تماما ما يمكن أن يعرفه شاب فى مثل سنه عادة .. فمثلا هو لم يذهب الى السينما مطلقا .. وهو مجتهد فى عمله ، ولكنه يحيى حياة صارمة قاسية ، الى درجة تثير قلقى فى بعض الأحيان !

فقـالت المشرفة ، وهى تقلب صـفحات الملف الخاص بالغلام :

ـ جائز !.. ولكن هل علمت أنه فى الثـالث من مايو ، تنكر فى زى فتاة ، وراح يبيع زهورا فى حى (چينزا) ؟.. لقـد لمحته احدى زميلاتى ووجهت اليـه انذارا .. وهل تعـرف أنه اسـتدرج ـ فى يوم من الأيام ـ بعض الجنـود الأمريكيين من أمام باب المعسكر ، واصطحبهم الى طوكيو .. **ومنذ أيام قليلة ، وجدوه ـ فى الساعة الثالثـة صباحا ـ بالقرب من محطة (ابريا) ، على خط قطار (سجانى) ، وهو فى أشد حالات السكر .. وكاد أن يدهمه قطار الصباح لولا أنه أنقذ فى آخر لحظة ؟**

وسادت ـ بعد ذلك ـ لحظة صمت ، لم يكن يقطعها سوى صـفير الرياح التى كانت تعوى خلال الأعشـاب الجافة فى الحقول ..

● ●

● **وما لبثت** المشرفة أن قالت ، محاولة أن تخفف من ألم المدرس :

ـ انك تعرف الطفل منذ زمن بعيد ، وأنا واثقة من أنك لم تكن تتخيله الا فى أفضل صورة ، وانه لم يرتكب أمامك أبدا ما يضطرك لأن تلومه أو توبخه .. ولكن من الجائز أن تكون أخلاقه قد تغيرت فى المدة الأخيرة .. أصبح يتنكر فى صورة فتاة ، ويسكر ، ويلعب لعبة القراصنة ، ويلهو باشعال النار فى مكان من المحظور دخوله حظرا تاما .. هذه الأعمال التى تختلف فى صورتها ، ولكنها تشكل نهجا واحدا من السلوك ، يبدو أنه تعبير عن التمرد على سائر الأوضاع .. أو ربما كان مصابا بخلل نفسى .. ولكن لا بد أن يكون ثمة سببا أساسيا لهذا التحول .. ان الشخصية لا تتحول هكذا بين يوم وليلة ، ومن المحتمل أن تكون هناك ذكرى مؤلمة تدفعه لأن يتصرف على هذا النحو .. فهل تستطيع أن تمدنا بأى معلومات فى هذا الشأن ؟

فقال المدرس ، وهو يهز رأسه : « لست أعلم ان كان الحادث الذى أعرفه سيفيدكم ، ولكنه ـ بلا شك ـ قد أثر فى « ثارو » تأثيرا شديدا .. فقد حاولت أمه أن تقتله يوما ، وقد عثرنا عليه ـ أنا و « أدان » ـ فاقد الوعى تحت احدى الأشجار ، فى هضبة (شيما ليتا) ، وقد التف حبل حول رقبته ثلاث لفات ، وكان يضغط على رقبته ضغطا شديدا ، حتى أننا لقينا مشقة فى فكه وازالتــــه ، اذ كان مدهونا بالصابون ، ليسهل انزلاقه !.. ومع أننا أدركنا الدافع وراء هذه الجريمة ، فانها ـ من ناحية العقل والضمير ـ كادت أن تخرجنـا عن وعينا . وقد تجشمنا مشـقة كبيرة فى اعادة الحياة الى « ثارو » ، حتى لقد كنا فى شك كبير من أن الروح ستعود اليه ، ونقلناه فى سـيارة « جيب » الى المستشفى العسكرى ، بعد أن أجرينا له عملية التنفس الصناعى .. فى ذلك الحين ـ كما تعلمون ـ انتحر ثلاثون ألفا من اليابانيين

المدنيين ، اذ كانوا على ثقة من أن الأمريكيين سيقتلونهم على أى حال !.. انتحرت عائلات بأسرها بالقنابل اليدوية .. وهناك عائلات أمسك كل فرد من أفرادها بيد الآخر ، وألقوا بأنفسهم من فوق الجبال الى البحر .. ولكن ، فى جميع هذه الحالات كانت الجثث توجد مجتمعة .. أما حالة « ثارو » ، فهى الوحيدة التى وجد فيها طفل واحد بمفرده ! »

وساد الصمت هنيهة ، ثم قطعه المأمور قائلا :

« انها قصة رهيبة ! » .. وأردف ـ بعد لحظة ـ قائلا :

« لا بد أن هذا الحادث كان ذا تأثير عميق فى نفسية الطفل ! »

وتململ المدرس قليلا فى مقعده ، ثم قال : « هل أستطيع أن أراه الآن ؟.. أود أن أوجه اليه بعض الأسئلة .. وقد خطرت لى فكرة ، قد تهدينا الى الطريق » .. فقال المأمور : « بكل تأكيد ! »

وقادته المشرفة الى باب فى الناحية اليسرى ، قائلة له : « من هنا لو سمحت ! »

● ●

● **كان** « ثارو » جالسا على الأرض ، فى غرفة ضيقة مظلمة ، مخصصة للشبان الموضوعين تحت المراقبة ، وكان يتأمل السماء خلال نافذة صغيرة ، كأنها فتحة فى قفص عصفور ، وهو يفكر فى الأيام الأخيرة التى قضاها فى (سايبان) ..

كان الظلام الخافت ، والرطوبة اللزجة ، والسماء المعتمة ، والصمت الشامل ، والاعياء الشديد .. هذه كلها كانت تذكره بمغارة (سايبان) ، منذ سنوات .. حيث كانت الصخور مغطاة بالطحالب ، والظلمة والرطوبة يجثمان طوال النهار والليل .. فلم تكن الشمس تعرف طريقا للمغارة

الا قبيل أفولها ، اذ ترسل بصيصا منها فينير جدران المغارة ، ويكشف وجوه المختبئين فيها !.. كانت هناك فتاة لم يبق منها سوى الجلد والعظم ، وقد راحت تبحث - بين الصخور - عن بعض حبات ساقطة من الأرز ، فتلتقطها وتفركها ثم تأكلها واحدة بعد واحدة !.. وكان خلفها جندى زائغ العينين ، أخذ يسد رمقه بالعشب البرى ، وقد سالت عصارة خضراء على زاويتى فمه !.. ثم لا يلبث هذا المشهد أن تغيب فى أدراج الظلام ، ويزحف على الكوم يوم آخر ..

وفى أحد تلك الأيام ، قال « ثارو » فى نفسه : « حان وقت الذهاب لاحضار الماء » .. كان ينتظر هذه اللحظة نافد الصبر ، فمنذ أن أقام فى المغارة وهو يشعر بسعادة غامرة لوجوده بصحبة أمه وقيامه بخدمتها !.. كان ينتظر منها كلمة ، وقد تعلقت عيناه بمحياها الجذاب .. ولم تلبث أن قالت له : « اذهب لتحضر لى ماء يا ثارو ! » .. كان حين يسمع صوتها يرتعد حبا وحنينا ، وكان على استعداد لأن يعمل أى شىء من أجلها ..

وكان نبع الماء العذب على مسافة خمسين مترا الى أسفل المغارة ، فكان لزاما عليه أن يتدلى على طول الصخرة المدببة كل هذه المسافة ، مما كان يسبب الدوار له ، ولو أنه لم يكن يحمل الا زجاجة فارغة .. فضلا عن أن الجنود الأمريكيين الواقفين فوق الصخرة ، كانوا يطلقون النار على كل شىء يتحرك !.. ولكن ثارو لم يكن خائفا على الاطلاق ، ولم يكن مدركا للخطر بأية حال .. وانما كانت السعادة تفيض فى قلبه ، اذ يشعر بأن فى وسعه أن يقدم الى أمه شربة ماء !

وحدث نفسه قائلا : « كم كان عمرى حينذاك ؟ » .. ثم راح - وهو يحك رأسه فى جدار « الزنزانة » - يتلو عن ظهر قلب : « أيها العابر ، اذهب وقل للاسيديمون ، اننا

تنفيذا لأوامر الملك ، ننام هنا » !.. وكانت أمه قد لقنته القصيدة ، وجعلته يكررها مرارا حتى حفظها ..

وقالت له أمه : « ان (لاسيديمون) هى (اسبرطة) .. وقد تصدت حفنة من جنودها — منذ ألفى عام — لجيوش الفرس وأوقفت زحفها ، فى مكان يسمى (ترمويولين) .. وماتوا جميعا فى المعركة ، فأقيم — فى ذلك المكان — نصب كتب عليه هذه الكلمات .. ألم يكن أولئك الأسبرطيون شجعانا ؟ .. يجب ألا ننساهم ! »

● ●

● **كانت** أمه تحاول — بالأحلام الجميلة — أن تنسيه قسوة تلك اللحظات الرهيبة .. ولكن الكارثة لم تلبث أن حلت أخيرا .. وانه ليتذكر كيف كان الآباء والأبناء كانوا يتماسكون ، ثم يلقون بأنفسهم من أعلى الجبل متعانقين ، أو يربطهم جميعا بحبل متين .. وكانت مياه البحر تتلقاهم .. وفى كل يوم ، كانت تختفى مجموعات أمام عينيه بهذه الطريقة .. **وكان « ثارو » يتصور أنه سيرتمى فى البحر — فى النهاية — وهو ممسك بيد [illegible] » ولذلك لم يكن يشعر بأى خوف أو حزن على الاطلاق !**

وكانت الشمس الآفلة تصبغ السماء بلون وردى فان ، فى تلك الأمسية الهادئة التى تناولت فيها أمه حبلا ، وطلبت منه أن يخرج معها من المغارة ، وهى تقول له : « انك لا تحب أن أفعل بك هذا على مشهد من كل هؤلاء القوم ، فتعال الى الخارج ! »

وفى تلك اللحظة ، لم يكن « ثارو » يتصور أنه سيموت بمفرده .. لكنه حين أدرك أنها تنوى أن تخنقه ، أذعن لارادتها ، وسار وراءها حتى أعلى الجبل ، مبديا لها وجها مشرقا باسما .. كى يسعدها !

— ٢ —

● **أقبلت** المشرفة فقادت « ثارو » الى الغرفة المجاورة ، حيث جلس — على المنصة — المدرس الذى كان يعرنه « ثارو » ورفاقه باسم « سان جان » .

وكان « سان چان » رجلا من (أوكيناوا) ، يعمل مديرا لمزارع قصب السكر فى (سايبان) ..

وتقدم منه « ثارو » ، فراح المدرس يعظه بطريقته المعتادة ، التى كانت تبعث على الضيق .. **وبينما كان « ثارو » يصغى اليه ، وهو مطاطىء الرأس ، وقعت عينه الشاردة على المسدس المتدلى من حزام شرطى كان جالسا يكتب ، على منضدة بجوار الجدار .. فقال فى نفسه : « هذا المسدس من نفس النوع ! » .. وقد خطر بباله مسدس كان أحد ضباط البحرية قد سمح له . حين كان فى المغارة — أن يلعب به !**

وواصل المدرس لومه ، قائلا : « انك تنكرت فى زى فتاة ، ورحت تبيع الزهور فى حى (جينزا) » .. فتساءل « ثارو » — فى نفسه — [illegible] أن يكون قد أخبر المدرس بهذه الأمور .. أهى المشرفة ؟ أم « توناكو » ، زميله فى الدراسة ، الذى أعاره رداء الفتاة ؟

واستطرد المدرس متسائلا : « انك لا تحب أن تكون عالة على غيرك ، ولذلك فكرت فى أن تكسب عيشك بنفسك ، أليس كذلك ؟ واننى لأحترم نزوعك الى الاستقلال ، ولكن ما الذى يدعوك الى أن تتنكر فى زى فتاة ، وتبيع الزهور ؟ »

قال « ثارو » فى نفسه : « أما فى هذه فانك خطأت » !.. لقد ارتدى زى بائعة زهور حقا ، ولكنه لم يكن يبيع زهورا .. ان المدرس لم يكن يدرى شيئا !

كان « ثارو » قد سمع فى (هونولولو) أن ثمة تدير حانة

فى (چينزا) .. فما ان وصل الى طوكيو حتى بحث عن الحانة .. واهتدى اليها ، ولكن دخول الحانات محظور على الأحداث ، فيما عدا بائعات الزهور وعازفات ((الأكورديون)) .. والجميع يعرفون ذلك !.. فما كان من « ثارو » الا أن استعار رداء بائعة زهور ، ولبسه — فى أمسية يوم من أيام الأحد — ثم توجه الى الحانة التى كانت أمه تديرها .. ولم يكن بها رواد كثيرون . وكانت أمه منحرفة المزاج ، فما أن رأته حتى صرخت فى وجهه فى غضب : « يا لك من وقح !.. كم مرة حاولت أن تدخل هنا ؟.. ان روادى لا يرغبون فى زهورك ! » . وفى مرة أخرى ، أمسكت خادم بثوبه ، وألقت به الى خارج الحانة .. ومع ذلك عاد ثانية !

● ●

● **ومضى** المدرس (ســان چان) فى توبيخه قائلا : « .. وكنت تصحب — فى سيارات الأجرة — اناسا ممن يأتون من (كوريا) ، فى أيام السبت . وقد جلب عليك هذا العمل شيئا من المال . ولكننى أشعر بالأسف حين أتصور أنك تستغل معرفتك باللغــة الانجليزية فى هــذه الأغراض الوضيعة ! »

وهنا قال ((ثارو)) فى نفسه : ((وهذه المرة أيضا ، لم تفهم شيئا يا سان چان !.. فأنا لم أكن أسعى لكسب النقود لنفسى ، وانمــا رأيت أن رواد الحانة — التى كانت أمى تديرها — قليلون ، فحاولت أن أجيئها بمزيد من الرواد)) !

لقد أراد أن يساعد أمه دون أن تعلم ، ولكنه ارتكب خطأ جسيما .. اذهب يوما الى حــانة صــغيرة ، بالقــرب من معسكر (فيزفام) — الذى يعتبر ملتقى لسائقى ســيارات الأجرة — كى يطلب سيارة ، فبادره أحد السائقين قائلا : « ان صاحبة الحانة التى تتحدث عنها هى أمك ، أليس كذلك ؟..

انك حقا ولد بار جدا ، ولكن هل تعلم أيها الصغير ما تفعله أمك مع الرجال الذين تذهب بهم اليها ؟ »

واذ سكت « ثارو » ، أردف السائق قائلا : « اذا كنت لا تعرف ، فسأتيح لك معرفة ذلك ! » .. ثم استدعى سائقا آخر وأشار له نحو « ثارو » ، وأسر فى أذنه كلمات ..

فى تلك الليلة ، عاد « ثارو » متأخرا الى عنبر نومه فى مدرسة « سان چان » ، وارتمى فوق سريره وهو يتلوى من الألم .. ان أمه لم تعد أمه .. انها ليست سوى امرأة !.. ولم تعد لديه رغبة فى هذه الحياة التى أفاق فجأة ، فوجدها بهذا القدر من القسوة والخسة !

وأراد أن يموت فى تلك الليلة بالذات ، فأخرج من خزانته كل صور أمه وخطاباتها ، ومزقها وألقى بها فى وعاء القمامة بالمطبخ .. وتطلع حوله خشية أن يكون قد نسى شيئا منها ، ولكنه لم يكن قد نسى شيئا على الاطلاق .. وحين أدرك أن كل ما بقى عليه أن يفعله ، هو أن ينام قليلا قبل مرور أول قطار ، صدم لقصر الفترة التى بقيت له فى الحياة ، فانفجر باكيا !

● ●

● **واستطرد** المدرس « سان چان » ، بلهجة التأنيب والاتهام قائلا : « .. ولقد انتقلت من سيىء الى أسوأ .. هذا طبيعى !.. ويبدو أنك كنت تسير مخمورا تماما ، على طول خط السكة الحديدية . وكان مصرعك وشيك الحدوث .. ما كنت أظن مطلقا أن من الممكن أن تنحدر الى درجة أن تشرب الخمر وتسير مخمورا ! »

فقال « ثارو » فى نفسه : « هذا صحيح ، ولكنه فى نفس الوقت خطأ !.. فأنا لم أكن قد شربت خمرا ، ولكن من

المحتمل أننى كنت أترنح كالمخمور !.. كان الفجر وشيكا ، والمصابيح الكهربائية ترسل نورها على طول رصيف المحطة ، وعلامة الاشارة مفتوحة ايذانا بأن قطار الصباح لن يلبث أن يمر بين لحظة وأخرى .. فخلعت سترتى ، وألقيت بها فوق العشب ، ثم استلقيت منبطحا بين قضبان السكة الحديدية ، أنتظر أن يمر القطار فوق جسدى .. ولقد مر القطار ، ولكنه لم يمسنى . وسمعت العامل الذى أخذنى الى ناظر المحطة ، يقول له : لو كان يرتدى سترة ، لعلقت أطرافها بالقطار ، وقضى عليه ، اذ كان ينام بين القضبان .. ولكنه لم يكن يرتدى الا قميصا ، وهذا هو الذى أنقذه ! »

بيد أن فكرة الموت ظلت تسيطر على « ثارو » . وفى ليلة من ليالى الخريف ، سرق بعض البترول من المطبخ ، واجتاز الحقل المترامى خلف عنبر النوم ، ودخل خندقا متهدما .. ثم سكب البترول فوق جسمه ، وأشعل النار فى أكمامه .. ولكن الاشتعال كان ضعيفا ، فان البترول الحديث لا يلتهب بسرعة كالبترول القديم .. وسرعان ما أطفأت الرياح اللهب الضعيف ، فحاول مستميتا أن يشعل النار – من جديد – فى أماكن أخرى من ملابسه ، ولكن الاحتراق كان بطيئا ، وقد تصاعد دخان لفت الأنظار ، فلم يلبث الناس أن حضروا ، فوجدوا « ثارو » مختنقا من الدخان ، وقد فقد وعيه .

وقال له رجل الشرطة : « لماذا أشعلت النار فى مهمات الجيش الأمريكى ؟.. سنخلى سبيلك اذا قلت الحقيقة ، والا فستلقى عقابك ! »

ولم يكن « ثارو » يعرف أن بالخندق مهمات .. فضلا عن أنه لم يفلح فى اشعال النار فى نفسه !

● **ووجد** نفسه يصرخ فجأة : « اقتلونى !.. اقتلونى ! »
فصاح سان چان : « أسكت ! » .. ثم نهض وغادر الغرفة مسرعا ، كما لو كان قد تأكد أن « ثارو » قد أصيب بالجنون !

ولم يلبث أن دخل ضابط شاب ، فنزع حزامه وألقاه ـ والمسدس فى جرابه ـ على المنضدة ، ثم استلقى وأغمض عينيه ..

ونظر « ثارو » الى المسدس طويلا .. وكان الشرطى الآخر لا يزال منهمكا فى الكتابة ، على الكتب الملاصقة للجدار ، موليا ظهره نحوه .. فقال تارو فى نفسه : « هذه هى الفرصة ! »

وفى حذر اتجه نحو حزام الضابط النائم ، وأخرج المسدس من جرابه ، وتحسس زر الأمان ، ثم جذبه الى الخلف .. ونهض فجأة ، وضغط الزناد ، فاذا بقطع من الجبس تتطاير من الجدار المقابل !

وقفز الضابط النائم مرسلا صرخة مدوية ، واختبأ تحت المكتب . أما الشرطى الآخر ، فقد ألقى بنفسه وراء المكتب ، وأخرج مسدسه ، وأطلق النار على الصبى الذى كان يمسك المسدس والدخان يتصاعد من فوهته !

وتهالك « ثارو » نحو الجدار الذى خلفه ، وأطلق زفرة طويلة ، وقد انبثقت الدموع من عينيه .. ثم سقط على الأرض !

....

(بقية المنشور صفحة ١٨)

الا لأضلل الحاكم المستعمر الطاغية ، عساى أن أعيش أيضا ، وأن أخدعه يوما ، وأن أتمكن من قتل نفس أخرى من رجاله مرة أخرى !.. وأنت .. أنت أصبحت اليوم من رجاله . أنت الذى ضحيت بأبيك وأمك وخطيبتك ، أصبحت أشد شرا على بلادك من المستعمر نفسه !.. فأنت الذى يجب أن أستكمل به اليوم واجب حقدى وثأرى وجهادى !.. لن أطفىء الشمعة حتى تنطفىء حياتك ، فاذهب ، اذهب الآن جثة هامدة الى معبودتك الفاجرة ايفونا !

وسددت ذراعها ، وهمت بأن تضغط على السلاح وتقتل حفيدها . واذ ذاك ارتجت الحجرة ، ودوى فى فضائها طلق نارى — لم ينبعث من سلاح ماريا — أصاب كارلو فى صدره ، وألقى به على الأرض صريعا مضرجا بدمه . فذهلت العجوز وجمدت ، ثم تلفتت مذعورة وحدقت ..

اذ ذاك أبصرت تجاهها ، على حافة النافذة المفتوحة ، هيكلا ضامرا تعرفه ، هيكل خطيبة كارلو ، هيكل الفتاة البطلة المجاهدة التى خدعها الشاب وغرر بها وانصرف عنها الى الفاجرة ايفونا . فاندفعت اليها العجوز والسلاح مشهر فى يدها ، وضمت الفتاة الى صدرها وهتفت :

— مرحى !.. مرحى لك يا جلوريا !.. لو أنك تأخرت لحظة واحدة لكنت أنا التى قتلته لا أنت !

فغمغمت الفتاة وهى ترتجف :

— أنا لم أقتله لأنه خان عهدى ، بل لأنه خان وطنى . ولقد عرف الزعيم بخيانته فاختارنى أنا للقضاء عليه !

فصاحت العجوز وهى تدفعها :

— اذن فأسرعى .. أسرعى بالفرار من هنا والا اتهمك

الحاكم بالجريمة ، أو اعتبرك شريكة فيها ، فعوقبت بالموت لا محالة . انقذى نفسك يا جلوريا . صونى حياتك من موت رخيص بيد العدو . أنت شابة وقوية وباسلة والمجاهدون فى حاجة اليك . أما أنا فأى نفع من حياتى ، والى أين يمكن أن أذهب الآن ؟.. **لقد كان فى عزمى أن أقتل الخائن — وهو حفيدى — وأتحمل كل شىء .. ففرى أنت اذن بنفسك ودعينى أعترف بأنى أنا القاتلة وأتحمل وحدى كل شىء !**

فلم تعترض الفتاة . ولكنها أجهشت بالبكاء ، ومضت تلثم فى حرارة يد العجوز . فعانقتها ماريا وقبلتها ، ثم دفعتها عنها واستعجلتها .. وظلت واقفة تتبعها النظر ، وهى تعدو مسرعة وسط الحقول ..

ولما اختفت الفتاة ، تحولت العجوز نحو مقعدها ، وتأملت لهب الشمعة الكبيرة لحظة ، وأطفأته .. ثم أرسلت نفسا مستطيلا ، وارتمت على المقعد .. ولبثت هادئة ثابتة ، تنتظر مصيرها !

قصة من أمريكا

ينبوع الشباب

للقصصي الأمريكي الكبير
ناثانيل هوثورن



ترجمة : رمسيس فرعون المحامى

.. لو عاد الشباب !

كل فرد لا بد أن يسائل نفسه يوما : « كيف أتصرف لو أتيح لى أن أعيش عمرى مرة أخرى ؟ هل أستفيد من التجارب التى مرت بى ؟ »

انه ولا شك سؤال مثير .. وبوحى من هذا السؤال ، نبعت هذه القصة .. فهى مبنية حول فكرة « ينبوع الشباب » وأثره فى اعادة الشباب ...

وفى هذه القصة يقدم « هاوثورن » أجوبة قد تثير أعظم الدهشة الا أنها يمكن أن تكون منطقية ومعقولة فى الوقت نفسه .

● فى احدى الأمسيات ، دعا الدكتور « هايديجر » أربعة من معارفه المحترمين ، ليقابلوه فى عيادته ... كان ثلاثة منهم رجالا دب الشيب فى شعرهم ، هم مستر « مدبورن » ، والكولونيل « كليجرو » ، ومستر « جاسكونى » .. أما رابعتهم ، فكانت عجوزا متصابية ، هى الأرملة « ويشرلى » .

كانوا أربعة مسنين بائسين ... صادفتهم التعاسة فى حياتهم . ولعل أكبر تعاسة صادفتهم ، هى أنهم حتى الآن لم يذووا فى قبورهم ، ليستريحوا من الآلام التى تلاحقهم وتأخذ بخناقهم !

كان مستر « مدبورن » ـ فى مستهل حياته ـ تاجرا ناجحا مرموقا ، ولكنه فقد كل ثروته فى مضاربات محمومة ، وأصبح فى حالة لا يحسد عليها .

ولقد أضاع الكولونيل « كليجرو » أفضل سنى عمره ، كما أضاع صحته وثروته ، فى البحث عن الملذات المحرمة ، التى

أدت به الى كثير من الأمراض المؤلمة ـ كالتهاب المفاصل والنقرس ـ فضلا عن الكثير من الآلام الأخرى ، التى سقط صريعها روحا وبدنا ...

أما مستر « جاسكونى » ، فكان سياسيا محطما .. كان رجلا ذا سمعة سيئة ، أو هكذا كانت شهرته من قبل ـ على الأقل ـ حتى محا الزمن اسمه من ذاكرة الجيل الحاضر ، فأصبح مغمورا بعد أن كان مرموقا ...

هذا عن الرجال المسنين الثلاثة ...

أما الأرملة « ويشرلى » ، فان الشائعات تنقل الينا أنها كانت ملكة تتربع على عرش الجمال ابان ريعان شبابها ، ولكنها أصبحت تعيش ـ ومنذ أمد طويل ـ فى غمرة النسيان ، بسبب بعض الأقاويل الفاضحة التى تناثرت عنها ، والتى آذت أسماع الطبقة المحترمة فى المنطقة .

ومما هو جدير بالذكر ، أن الرجال الثلاثة كانوا قد وقعوا فى غرام الأرملة « ويشرلى » ـ وهى فى ريعان شبابها ـ وبلغ بهم التزاحم من أجل الفوز بقلبها حد التضارب والعراك !

وقبل أن نوغل فى سرد قصتنا ، يهمنا أن نقول أن الدكتور « هايديجر » وضيوفه الأربعة كانوا جميعا يستبد بهم القلق ، ويسيطر على جوانحهم ومشاعرهم ، كما هى حال كل من تقدمت به السن ، سواء كان ذلك ناجما عن متاعب معاصرة ، أو عن ذكريات أليمة مريرة ...

● ●

● **وبدأ** الدكتور « هايديجر » حديثه ، مشيرا الى ضيوفه بالجلوس : « أيها الأصدقاء الأعزاء .. اننى لفى شديد الحاجة الى معونتكم فى احدى التجارب ، التى تعلمون اننى أسلى بها نفسى هنا ـ فى عيادتى ـ بين الفينة والفينة » .

ولقد كانت عيادة الدكتور « هايديجر » مكانا مثيرا حقا

.. كانت تتكون من غرفة واحـــدة مظلمة ، أكل الدهر على الأثاث الموجود بها وشرب ، وعشش العنكبوت فى أركانها .. وحول الحوائط الكالحة ، كانت ثمة رفوف تعـلوها الكتب ، فملأت الرفوف السفلى منها كتب ضخمة تناهت فى الضخامة .. أما الرفوف العليا فكانت تشغلها كتيبات مكسوة بالجـلد الأسود الموشى بحروف ذهبية .

وفى ركن من قاعة المكتب ، كانت هناك مائدة يعلوها تمثال نصفى لأبو قراط اله الطب ، كان الدكتور « هايديجر » ـ كما تروى الاشاعات ـ يستشيره فى جميع الحالات المستعصية التى يتعرض لبحثها وفحصها .. وفى أشد أركان الغرفة ظلاما ، كانت ثمة خزانة شامخة ، بدا من أحد مصراعيها هيكل عظمى يترنح فى حركات رتيبة !

ولم يكن يكسو الجدران سوى ستائر قديمة العهـــد ، ومرآة يحوطها اطار مذهب بهت طلاؤه .. **ومن الأساطير التى تروى عن هذه المـرآة ، أن جميـع أرواح مرضى الدكتـور « هايديجر » ـ الذين انتقلوا الى العالم الآخر ـ كانوا يعيشون فى اطارها ، ويحملقون فى وجه الدكتور عندما يتطلع اليها !**

وعلى الجانب الآخر من جدران الغرفة ، كانت هنـــاك صورة ـ بالحجم الطبيعى ـ لسيدة فى مقتبل الشـباب ، فى ثوب باهت من الحرير الغالى المطرز بالساتان .. وكان وجهها باهتا كثوبها ! .. ولقد كان الدكتور « هايديجر » على أهبـة الزواج من هذه السيدة ـ منذ حوالى نصف قرن ـ ولكنهـا فى فترة اضطرابها ، قبيل الزواج ، ابتلعت قرصا أوصاها به خطيبها لتهدئة أعصابها ، فاذا به يؤدى الى وفاتهـا فى نفس ليلة زفافهـا .

أما أكثر ما كان يبعث على العجب فى العيادة ـ بعد كل ذلك ـ فهو كتاب ضخم مكسو بالجـلد الأسود ، وتحيط

بأطرافه مشابك من الفضة الخالصة .. **ولم يكن يحمل على ظهره أية حروف ، لا ولم يقدر أحد أن ينبئنا باسمه ، ولكن .. كان من المعروف أنه كتاب عن السحر !**

وفى احدى الأمسيات ، حاولت احدى الخادمات رفعه ، لكى تزيل التراب من تحته ، فاضطرب الهيــكل العظمى فى خزانته ، وتقدم خطوة على الأرض الى الأمام ، كما برزت عدة وجوه مخيفة ، أطلت من المرآة ، بينما تجهم التمثال النصفى لأبوقراط ، وهو يصيح : « كفى عن هذا ! »

هكذا كان مظهر عيــادة الدكتور « هايديجر » ، حينما اجتمع وضيوفه الأربعة حول مائدة مستديرة فى لون الأبنوس الأسود اللامع ، يعلوها اناء للزهور من « الكريستال » الغالى ، ينم عن ذوق رفيع .. وكانت أشعة الشمس الغاربة تتسلل الى الغرفة من بين ثنيات ســتارتين من الحرير الدمشقى الغالى ، لتقع مباشرة على اناء الزهور فينعكس ضوؤها على الوجوه المغبرة للأشخاص الخمسة الملتفين حول المائدة .. كما كان على المائدة أربع كؤوس فارغة من كؤوس الشمبانيا !

ووجه الدكتور حديثه الى ضيوفه الأربعة قائلا :

« أيها الأصدقاء الأعزاء .. هل لى أن أعتمد عليــكم فى القيام بتجربة تتناهى فى الغرابة ؟ »

● ●

● **والآن** ننتقل الى الدكتور « هايديجر » نفسه . كان سيدا متقدما فى السن ، غريب الأطوار ، حتى أصبح شذوذه نواة لعشرات القصص الخيالية التى تحاك حوله .. ولعلى أنا (الكاتب) ، من أصحاب بعض هذه القصص . فاذا ما هزت قصتى وجدان القارىء ، فانه ليسعدنى أن أساهم فى شــهرة الدكتور وشذوذه !

واذ استمع ضيوفه الأربعة اليه ، وهو يحدثهم عن تجربته المقترحة ، لم يتوقعوا أن تتجاوز قتل فأر فى أنبوبة اختبار ، أو

فحص مجهرى لعنكبوت ، أو احدى هذه الترهات التى كان دائما يحب أن يداعب بها أصدقاءه ومريديه ويبهرهم .

ولكنه — دون أن ينتظر ردا منهم — عبر الغرفة فى خطوات سريعة ، وعاد حاملا المجلد الضخم الكبير ذا الغلاف الأسود ، الذى قلنا أن الاشاعات تصفه بأنه أحد كتب السحر .. وبعد أن فك المشابك الفضية التى كانت تغلقه ، فتح الكتاب ، والتقط من بين صفحاته وردة .. أو شيئا كان وردة فى وقت ما ، ولكن أوراقها ذبلت وتغضنت ، فبدا أنها كانت على وشك التهشم والانهيار بين أصابع الطبيب النحيلة الطويلة ..

قال الطبيب وهو يتنهد :

« هذه الوردة .. هذه الوردة بالذات التى ذوى غصنها ، كانت فى أوج نضارتها منذ خمس وخمسين سنة ... لقد أعطتنيها « سيلفيا وارد » التى ترون صورتها خلفكم فوق الجدار .. وكنت على وشك أن أضعها فى عروة سترتى يوم الزفاف !.. وهى — منذ ذلك الحين — وهى تقبع بين أوراق هذا المجلد ... **والآن ، هل بوسعكم أن تتصوروا أن من الممكن لهذه الوردة — التى يرجع عهدها الى هذا الزمن السحيق — أن تستعيد رواءها فى لحظة واحدة ؟! »**

هنا لم تتمالك الأرملة « ويشرلى » نفسها ، فصاحت فى حركة عصبية : « كلام فارغ !.. كأنى بك تريد أن تقول أيضا ، أن السيدة العجوز المغضنة الوجه يمكن أن تستعيد رونقها ، هى الأخرى ، فى لحظة واحدة ! »

قال الدكتور هايديجر : « أنظروا اذن ..! »

ثم كشف الغطاء عن اناء الزهور ، وألقى بالوردة الذاوية فى الماء الذى كان يملأه .. وفى أول الأمر ، ظلت الوردة ساكنة تطفو على سطح السائل لا تتشرب شيئا منه .. **ولكن أمرا غريبا بدأ يبدو — وفى بطء — بعد لحظات .. فاذا الأوراق**

الذاوية تستعيد رونقها رويدا ، وأخذ العنق المتيبس يسترد اخضراره .. كما لو كانت الوردة تفيق من حلم طويل عميق ! .. وان هى الا دقائق معدودات حتى بدأت الوردة فى نضارتها التى كانت عليها منذ نصف قرن ، يوم أهدتها « سيلفيا وارد » الى خطيبها لأول مرة ، وقد بدت بعض نقط الماء تلمع على أوراقها كاللؤلؤ فوق القطيفة الحمراء .

وصاح أصدقاء الطبيب بدون اكترات ، اذ كانــوا قد شاهدوا ــ من قبل ــ معجزات أكبر وأعظم ، فى عروض قام بها بعض الحواة « انها ولا شك خدعة باهرة !.. بربك كيف قمت بها ؟ »

أجاب الطبيب : « ألم تسمعوا أبدا عن ينبوع الشباب ، الذى حاول المغامر الأسبانى « بونس دى ليون » البحث عنه ، منذ قرنين من الزمن أو يزيد ؟ »

فتساءلت الأرملة ويشرلى : « ولكن هل استطاع بونس دى ليون العثور عليه ؟ »

ــ كلا .. لأنه لم يبحث عنه أبدا ، فى مكانه الحقيقى . فان ينبوع الشباب ــ اذا كان ما وصل الى علمى عنه صحيحا ــ يقع فى الجزء الجنوبى من شــبه جزيرة (فلوريدا) ، ويتوارى منبعه فى غابات كثيفة من أشجار (المانوليا) الضخمة ، التى لا تزال ــ برغم مرور السنين الطويلة ــ يانعة كزهور البنفسج ، بفضل مياه هذا الينبوع ... ولما كان أحد أصدقائى يعرف تضلعى فى مثل هذه المسائل ، فقد أرسل لى خصيصا هذا القدر من المياه الذى ترونه فى اناء الزهور !

وتساءل الكولونيل « كليجرو » ، وهو لا يصدق كلمة واحدة من قصــة الدكتور : **« وماذا يمكن أن يكون أثر هذا السائل على الجسم الانسانى ؟ »**

فأجاب الدكتور هايدبجر : « ســوف تحــكم بنفسك يا صديقى الكولونيل !.. اذ أنكم ــ أيها الأصدقاء المحترمين

ـ مدعوون الى أن تتناولوا من هذا السائل قدر ما تستطيعون لكى يعيد اليكم نضارة الشباب .. أما أنا فقد عانيت كثيرا فى دنياى حتى وصلت الى سن الشيخوخة ، فلم أعد متلهفا للرجوع مرة أخرى الى سن الشباب !.. لذلك فكل ما سأفعله هو أن أرقب مدى نجاح هذه التجربة اذا سمحتم لى بذلك ! »

● ●

● **وأخذ** الدكتور « هايديجر » يملأ كؤوس الشمبانيا من ماء ينبوع الشباب ، وهو يتكلم .. وبدا الماء فوارا ، لأن بعض الفقاقيع أخذت تطفو من القاع الى وجه الماء ، على شكل حبيبات فضية لامعة .. بينما انتشر فى الجو شذى رائحة طيبة ، مما جعل المسنين الأربعة لا يشكون برهة فى أن يكن لهذا السائل مفعول غريب ولا بد ، فحثهم هذا على أن يمدوا أيديهم بسرعة الى الكؤوس ليجرعوا ما بها . ولكن الدكتور « هايديجر » أومأ اليهم بيده أن يتريثوا برهة ، وهو يقول : « عليكم قبل أن تشربوا ، أن تقدروا ما أنتم مقدمون عليه ، مسترشدين فى ذلك بخبرة حياة كاملة !.. ماذا ينبغى أن تفعلوا اذا ما رجعتم مرة أخرى الى سنى شبابكم وسط مخاطر الحياة الحالية ؟.. تصوروا كم يكون الأمر مشينا ، اذا لم تصبحوا نماذج للفضائل ، وعنوانا للحكمة ، ومثالا يجب أن يحتذيه جميع شباب عصرنا الحاضر ! »

وظل أصدقاء الطبيب لا يحيرون جوابا .. كانت كل لهفتهم تتجه الى شرب المياه بأسرع ما يمكنهم ، ليقتنصوا كل دقيقة من الوقت .. فكل دقيقة تنقضى ، باتت فى نظرهم عبثا وهباء ؟

وقال الدكتور ، وهو يشير الى الاناء : « اشربوا اذن ،

فأنا على ثقة الآن من أننى قد اخترت من يناسب تماما موضوع تجربتى ! »

وبأيد مرتعشة ـ موزعة بين التردد واللهفة ـ رفعوا الكؤوس الى أفواههم ، وقد بدوا وكأنهم لم يروا شبابا أو متعة فى حياتهم كلها .. بل كأنهم ولدوا مسنين ، فهم يتطلعون الى أن يعرفوا ما تناهى الى سمعهم عن متع الدنيا وزخرفها .. وبعد أن أفرغوا كؤوسهم ، أعادوها الى المائدة وظلوا يترقبون !

وسرعان ما لوحظ تطور غريب على وجوه الجماعة .. لم يكن تطورا كذلك الذى يحدث عقب شرب زجاجة من الخمر المعتقة ، ولكن .. كأنما كان ثمة ضوء وهاج أنار وجوههم فجأة .. وظهرت لمحة من الصحة تكسو وجوههم وتمحو عنها تلك الجهامة الكابية التى كانت تبديها كوجوه الموتى !.. وأخذوا يحملقون فى وجوه بعضهم بعضا ، وهم يخالون أن معجزة حلت لتمسح أحزانهم ، وتزيل آلامهم التى أضفاها الزمن على جباههم وملامحهم !

وأخذت الأرملة « ويشرلى » تعدل من وضع قبعتها ، اذ شعرت بأنها عادت ناضرة الأنوثة مرة أخرى ، وقالت : « ناولنا المزيد من هذه المياه العجيبة !.. اننا الآن أصغر مما كنا ، ولكننا لا نزال كبار السن .. بسرعة ، بسرعة .. ناولنا المزيد ! »

ورد الدكتور « هايديجر » ، الذى ظل صامتا طول الوقت ، يرقب التجربة فى رزانة الفلاسفة : « **صبرا ، صبرا ! .. لقد وصلتم الى السن التى كنتم عليها بعد عمر طويل .. ولن ينتقص من اغتباطكم أن تستغرق عودتكم الى الشباب نصف الساعة فقط !.. وعلى أى حال ، فالماء تحت تصرفكم ..! »**

وعاد يملأ الكؤوس من مشروب الشباب . وبقى فى اناء الزهور من الماء ما يكفى لأن يحول نصف سكان المدينة من الشيخوخة الى أعمار أحفادهم !

● ●

● وفى حركة بادية الانفعال ، جذب الأربعة كؤوسهم من على المائدة ، وأفرغوها فى حلوقهم دفعة واحدة .. **ترى هل كان الأمر خداعا ؟ ؟ لقد كان الشراب – وهو ينساب فى حلوقهم – يبدو وكأنه يسجل أثرا على كل كيانهم .. اذ بدأت عيونهم تلمع وتفيض بنظرة أكثر رقة وشبابا .. وجلسوا حول المائدة : ثلاثة رجال فى أوسط العمر ، وسيدة تكاد تكون فى ربيع الحياة !**

وصاح الكولونيل « كليجرو » ، وعيناه مثبتتان على وجهها ، الذى بدأت مظاهر الشيخوخة تبارحه ، كما يتسلل الظلام عندما يغزوه نور الفجر : « سيدتى ، كم أنت فاتنة ! »

ولكن السيدة الفاتنة كانت تعلم – بخبرتها القديمة – ان أقوال الكولونيل « كليجرو » لا تتسم دائما بطابع الصدق المنبعث من القلب ..

لذلك فقد جرت الى المرآة تستشيرها ، وهى تخشى أن يطالعها على صفحتها وجه العجوز الشمطاء التى تعلو وجنتيها آثار السنين الخوالى ..

وأخذ الرجال الثلاث يتصرفون بما أوحى بأن لماء ينبوع الشباب هذا الأثر الناجح فعلا .. ففيما عدا الدوار الخفيف الذى أحسوا به – نتيجة ارتدادهم فجأة عشرات السنوات الى الوراء – أخذ الشباب ومرح الشباب وطيشه يسيطر على كل تصرفاتهم !..

وانطلق لسان مستر « جاسكونى » يتشدق بالموضوعات السياسية ، ولكن .. هل تتصل هذه الموضوعات بالأحوال

السياسية فى الماضى ، أو هى تتصل بالحاضر ، أو المستقبل ؟.. كان من الصعب ادراك هذا ، اذ كان كل ما انساب منه من عبارات ، هو عين ما اعتادوا أن يرددوا خلال الخمسين عاما الأخيرة !.. **فراح مستر « جاسكونى » يتحدث عن الوطنية ، والمجد القومى ، وحقوق الشعب .. وكان يتحدث بصوت منخفض – أحيانا – حتى لا يسمعه ضميره ، ويرفع من صوته – أحيانا أخرى – فى نبرة مهيبة ، كما لو أن أذنا ملكية كانت تستمع اليه ، وقد تكافئه عن أقواله بمنصب وزارى !**

أما الكولونيل « كليجرو » فقد راح يردد – طيلة هذا الوقت – نشيدا حربيا حماسيا ، ويدق بكأسه على المائدة فى « سيمفونية » تتجاوب مع النشيد !.. بينما كانت عيناه معلقتين بوجه الأرملة « ويشرلى » ، الذى رجع تماما – فى تلك الأثناء – الى مقتبل الشباب ..

وفى الجانب الآخر من المائدة ، كان المستر « ميدبورن » منهمكا فى حساب الدولارات التى ستعود عليه من مشروع اعتزم القيام به ، وهو تسيير قافلة من الحيتان والأسماك البحرية الكبيرة ، لتنقل الثلوج من الجبال الجليدية بالمحيطات ، الى بلاد الهند الشرقية الحارة ..

وظلت الأرملة « ويشرلى » تحملق مشدوهة فى صورتها المنعكسة على المرآة ، وهى ترحب بها ، وكأنها كانت ترى – بعد طول فراق – صديقا قديما أحبته أكثر من أى شىء آخر فى حياتها .. وأخذت تزداد بوجهها قربا من المرآة ، لترى ما اذا كان أى ظل للتجعدات باقيا .. وما اذا كان الشيب قد زال تماما من شعرها !!.. وأخيرا ، دارت فى حدة – وقد اطمأنت تماما – لتعود فى خطوات راقصة الى

المائدة ، وهتفت : « يا عزيزى الدكتور .. بربك امنحنى كأسا أخرى ! »

رد الدكتور مجاملا « طبعا يا عزيزتى .. انظرى ، لقد ملأت الكؤوس فعلا ! »

● ●

● **وكانت** الكؤوس الاربع ممتلئة فعلا حتى حافتها بالسائل العجيب الفوار ، الذى كانت حبيباته مواظبة على على الارتفاع من أسفل الكؤوس حتى أعلاها ، كحبات اللؤلؤ ... وبدأ الغسق ينشر ألويته ، ولكن نورا خافتا ظل ينبعث من اناء الزهور ، وينعكس على وجوه الضيوف الأربعة ووجه مضيفهم الطبيب المحترم ، الذى ظل جالسا فى مقعده العالى ، يطل فى كبرياء الرجل الوقور على ضيوفه الأربعة وهم يتصرفون كما لو كانوا فى ريعان الشباب !.. فلقد ظلوا ــ حتى تناولوا الكؤوس للمرة الثالثة ــ ينظرون فى احترام الى التعبير الرزين الذى كان يتراءى على وجهه .. **ولكن ، ما أن سرى ماء الكأس الثالثة فى عروقهم ، حتى أصبحوا فى مرح المراهقين وطيشهم !.. وبدا لهم العمر الطويل ــ بهمومه وأحزانه وآلامه وأمراضه ــ قد انحسر ، كما لو كان ذكرى بغيضة الى نفوسهم ، أو شتات حلم مزعج أفاقوا منه !.. فلقد أحسوا بأنهم ولدوا من جديد .. فى دنيا جديدة !**

وراحوا يرددون : « لقد عدنا الى الشباب ! عدنا الى الشباب !.. »

وأصبحوا ــ وقد زال عنهم كل أثر لرزانة الشيخوخة ووقارها ــ مجموعة من الشباب ، تحكم تصرفاتهم جميعا حماقات المراهقين . وتحول حديثهم الى سخرية لاذعة من الشيخوخة التى كانوا ــ فترة ما ــ فرائس لها .. وأخذوا

يضحكون من ملابسهم التى عفا الزمن على طرازها ، ومن قبعاتهم العريضة الغريبة ، ومن القفازين القديمين الغريبى المظهر ، اللذين ارتدتهما السيدة الفاتنة التى كانت تجلس أمامهم !.. وأخذ أحدهم يقلد عجوزا يعرج ، وهو يسير على عكازين وهميين .. ووضع الآخر نظارته على قصبة أنفه ، كما يفعل المسنون ، وهو ينكب على كتاب السحر الضخم ، وكأنه يجد صعوبة فى قراءته !.. بينما اتكأ الثالث فى مقعد واسع ، يحاول أن يقلد رزانة الدكتور « هايديجر » ووقاره .. ثم أخـذ الجميع يصيحون ويغنون بأعلى صوتهم وهم يقفزون فى الغرفة !

أما الأرملة « ويشرلى » ـ اذا حق لنا أن نسمى آنسة فى مثل هذا الجمال والسن بالأرملة ـ فقد خطت فى استحياء ماكر نحو المقعد الذى جلس عليـه الدكتور ، وقالت تداعبه : « يا أحب الناس الى قلبى .. أليس لك فى رقصة معى ؟ ! »

وهنا علا ضحك بقيـة الشـبان ، وهم يتخيلون مدى الجهد والعناء الذى يتحمله الدكتور الشيخ ، اذا هو رقص مع هذه الآنسة الشابة !

ولكن الدكتور أجاب فى هـدوء : « أرجـو معـذرتك يا سيدتى ، فأنا كبير السن ، ولم أرقص منذ عهد بعيد ، ولكن أيا من هؤلاء الشبان المرحين ، سيسعده ـ ولا شك ـ أن يحظى بالرقص معك ! » .. وهنا هتف الكولونيل كليجرو « تعالى أرقصى معى يا كلارا ! » .. ولكن المستر جاسكونى صـاح فى وجهـه معترضـا : « كلا .. كلا .. أنا الذى سأزاملها فى هـذه الرقصـة ! » .. فتدخل المستر مدبورن قائلا : « بل أنا الذى سيرقص معها ، لأنها وعدتنى بالزواج منذ خمسين سنة ! »

● **والتفوا** جميعا حولها : واحد يشدها من كلتى يديها فى انفعال ، والآخر يلف خصرها بذراعه ، والثالث يجوس بأصابعه خلال جدائل شعرها الذهبية .. وهى تحاول — فى تمنع ودلال — أن تفلت من بين أيديهم ، وصدرها الناهد يعلو ويهبط .. ولكن دون أن تبذل من جانبها أية محاولة جدية فى اصطناع ذلك ! كم كان جميلا منظر هذه المنافسة التى كانت جائزتها وجها باسما فاتنا فى مقتبل الشباب !.. **ولكن المرآة الخبيثة لم تعكس هذه الصورة الجميلة ، بل ظلت تعكس صورهم فى شكل ثلاثة شيوخ متهالكين ، فى ملابس قديمة الطراز ، تملأ الأخاديد وجوههم ، وقد راحوا يتنازعون فيما بينهم — بصورة غير مستساغة — عجوزا شمطاء ، عفا عليها الزمن فتركها جلدا على عظم !**

ولكنهم كانوا شبابا .. كانت عواطفهم الملتهبة تؤكد لهم ذلك !.. وعندما أثارهم دلال الفتاة — التى بينهم — الى حد الجنون ، أخذوا يتبادلون فيما بينهم نظرات غاضبة . ثم انقلبت هذه النظرات الى أن أمسكوا برقاب بعضهم البعض . وبينما هم يتلاحمون فى غضب ، انقلبت المائدة بما عليها ، وهوى اناء الزهور الغالى ، فتهشم الى آلاف القطع .. ويجرى الماء الثمين لامعا على أرض الغرفة ، معيدا الشباب الى جناحى فراشة عجوز ، كانت ترقد فى استسلام على أرض الغرفة ، وتهىء نفسها للموت .. فما كاد الماء يلمسها حتى انتفضت ، وانطلقت تطير لتستقر على رأس الدكتور « هايدجر » ، الذى تخلله الشعر الأبيض . وهتف الدكتور : « كلا كلا ، أيها السادة !.. كلا كلا ، يا مدام ويشرلى !.. الآن يحق لى أن احتج على هذه الفوضى الضارية ! » .

ووقفوا صامتين لا يبدون حراكا ، اذ بدا واضحا أن الزمن العاتى بدا يدعوهم الى العودة من رحلة شبابهم المشوقة ، الى وادى الشيخوخة مرة أخرى !.. وأخذوا ينظرون الى الدكتور « هايدجر » ، الذى جلس فى مقعده الواسع حاملا الزهرة التى بلغ عمرها خمسين سنة ، والتى استطاع انقاذها بين أشلاء الاناء المحطم . وباشارة وقور من يده ، عاد الأربعة الطائشون الى مقاعدهم طواعية ، اذ أن الشجار أنهك قواهم رغم شبابهم .. الظاهرى !

وأخذ الدكتور يناجى زهرته : « يا لزهرة سيلفيا المسكينة ! انها بدأت تذبل من جديد !.. »

وهذا ما كان يحدث فعلا !.. فقد أخذت الزهرة فى التغضن - والجميع يحملقون فيها - حتى أصبحت جافة ، هشة كما كانت ساعة أن ألقى بها الدكتور فى الاناء ، قبل فترة وجيزة !

وقال الدكتور ، وهو يقرب الزهرة لتلامس شفتيه : « اننى أحبها هكذا ، أكثر مما أحببتها فى أوج نضارتها ! » .

● ●

● **وبينما** كان يتكلم ، طارت الفراشة من فوق رأسه ، وحومت مترنحة ، ثم سقطت على الأرض جثة هامدة ..

وبدأت قشعريرة باردة تسرى فى أوصال الرجال والمرأة . أتراها كانت تسرى فى أرواحهم .. أو فى أبدانهم ؟.. هذا ما لم يستطيعوا أن يقطعوا به !.. وأخذوا يحملقون فى بعضهم البعض ، ويحسون بأن كل دقيقة تمر عبر الزمن ، تسلبهم متعة وشبابا ، وتحضر أخدودا جديدا فى وجوههم !.. **ترى هل كان الأمر كله وهما ؟.. هل كان من الممكن أن تحدث كل هذه التغييرات المذهلة ، فى مثل هذه**

الفترة الوجيزة ، ثم يعودوا من جديد أربعة ضيوف مسنين ، يجلسون مع صديقهم القديم دكتور «هايديجر» ؟..

وتساءلوا فى حزن : « هل عدنا مسنين مرة أخرى »؟..

الحقيقة المريرة ، انهم أصبحوا كذلك !.. فقد كان مفعول ماء الشباب سريع الزوال كالخمر !.. وتبخرت النشوة – التى خلقها – كالفقاقيع التى تملؤه !.. نعم ، لقد عادوا مسنين مرة أخرى !

وبدافع لا شعورى ، رفعت الأرملة « ويشرلى » يديها – التى تهدل الجلد حولهما – أمام عينيها مرة أخرى ، وتمنت لو أن هذين اليدين كانتا دفينتين تحت التراب منذ زمن ، فهذا أرحم من استردادهما الجمال لدقائق ، ثم عودتهما الى قبح الشيخوخة !

ووجه اليهم الدكتور حديثه قائلا : « نعم أيها الأصدقاء .. لقد أصبحتم مسنين مرة أخرى .. ولقد سكبتم – للأسف الشديد – كل ما تبقى من ماء الشباب فى عشكم الأرعن !.. **وأنا شخصيا غير آسف لذلك ، فانى لم أفكر لحظة واحدة أن أبلل شفتى بهذا الماء .. حتى لو كانت نشوته تستمر لعدة سنوات ، وليس للحظات معدودات !.. هذا هو الدرس الذى علمتمونى اياه بتجربتكم الوجيزة ! »**

ولكن ضيوف الطبيب الاربعة لم يتعلموا شيئا من هذا الدرس !... بل انهم وطنوا العزم على أن يحجوا الى « فلوريدا » ، لكى يجرعوا – كل صباح ومساء – من ماء ينبوع الشباب !.. وكان أشدهم حماسا لهذه الفكرة ... الارملة « ويشرلى » !

....

قصة من ڤيتنام

الجسر المعلق!

للكاتب المعاصر
توي آن هونج دان



ترجمة : ح . ا

كلهم فى العدوان على الآمنين سواء !

اذا كانت الكاتبة الانجليزية ((ايثيل منين)) قد استطاعت أن تنقل لنا صورة رائعة لمأساة فرار أهل القرى الفلسطينية الوادعة من ارهاب الصهيونيين ووحشيتهم ـ فى الاربعينات من هذا القرن ـ فان الكاتب الفيتنامى ((ثوى آن هوانج دان)) يرسم لنـــا ـ فى القصة التى نقدمها على الصفحات التالية ـ صورة لا تقل روعـــة واثارة للمشاعر الانسانية ، لفرار أهل القرى الفيتنامية السالمة ، من وحشية الامريكيين ، فى الستينات من القرن ..

● **كانت** طلقات النيران قد اقتربت من جميع الجهات .. وفجأة ، اقترنت بها انفجارات عنيفة تصم الآذان ، ولا يعلم غير الله مصدرها !

ولم يجد الذين لم يكونوا قد رحلوا بعد ـ من سكان قرية (نجين) ـ وقتا للتفكير أو الجـدال .. فسرعان ما أصبح صخب فرارهم الجنونى يتردد فى جميع الطرق المفضية الى خارج القرية الصغيرة ، والرعب والكرب يثقلان صراخهم :

((لقد أصبحنا فى قلب النار ! .. لقد زحفت الينا الجبهة !))

واندفع بعض الذين سمعوا آخر الأنباء ـ عند مدخل القرية ـ يسعون الى بيوتهم ، ليحملوا منها كل ما تصل اليه أيديهم . وبقى بعض منهم فى المؤخرة ، ليساعدوا المسنين ، ويحملوا الأطفال .. وكدست النساء فوق ظهورهن ما كانت تضمه بيوتهن الفقيرة من أمتعـة ، بينما حمل الرجال على أكتافهم أدوات الزراعة وآلاتها .. وراح الجميع يتدافعون ـ فى عجلة ـ فرارا من القرية المهددة ، دون أن تكون لدى واحد

منهم فكرة محددة ، عن الوجهة التى يتخذها .. فكانوا ينضمون - بلا وعى أو ارادة - لأكثف الجماعات الهاربة التى تصادفهم ، دون أن يفسحوا لأنفسهم فرصة ليسألوا : من أى نواحى الجبهة ينبعث ضجيج المعركة ؟ .. والى أية مسافة من القرية وصل المحاربون ؟ .. كان كل هم القرويين أن ينطلقوا فى فرارهم مسرعين ، لاهثين ، حاملين أبناءهم وزادهم وأمتعتهم !

وبدا أن الطلقات كانت تنبعث من كل ناحية ، وفى وقت واحد ، تصحبها جلبة وسائل النقل ، التى كانت تتناهى الى أسماع القرويين ، فكانوا يحسون بها - أكثر مما يسمعونها - اذ كانت تزلزل الأرض تحت أقدامهم ! .. **وفى تدافعهم واضطرابهم ، كان بعضهم يسقط فوق بعض ، وكان الأزواج يفترقون عن زوجاتهم ، والأمهات ينفصلن عن أولادهن .. فتتصاعد النداءات لاهثة ملهوفة .. وكلما قطعوا شوطا ، انضم اليهم فريق جديد ، يضاعف ذعرهم بما يحمل من أنباء:**

- لقد بلغوا الجسر ! .. انهم قادمون من طريق (دان أجزين) !.. لديهم مصفحات !.. انهم يطلقون النار على القرية!

وتأكيدا لهذا الخبر الأخير ، مرقت فوق رؤوس النازحين - وهم مصطفون على ضفة النهر - دفعات من القنابل القاصفة ، فانبطحوا جميعا .. وأرسلت النسوة عاصفة من الصراخ والعويل :

- لقد أحاطوا بنا ! .. لقد حوصرنا ! .. يجب أن نعبر النهر ، فهذه هى فرصتنا الوحيدة للنجاة !

● ●

● وفى **حركة** واحدة ، اندفع المهاجرون نحو حافة النهر ، وقد تركوا مناجلهم وأدواتهم وما كان يضايقهم حمله

من حزم .. والكهول منهم يئنون ، والأطفال يبكون .. ومن احدى النساء ، انطلقت صرخة مرتاعة ، فارتفع صوت رجل يقول : ((**اغلقن أفواهكن يا نسوة ! .. انهم اذا سمعونا فسوف يقصفوننا بالقنابل ، فيمزقوننا اربا !))**

وازاء هذا التحذير كتم الكهول أناتهم ، وأخذت الأمهات يسكتن أبناءهن ويلصقن راحاتهن بأفواههم !

وعلى طريق الجسر ، أخذت ضوضاء المصفحات تدنو ، مختلطة بطلقات الرصاص ، تعزف موسيقى الموت .. واستمر الضجيج الرهيب فى الاقتراب .

ولكن الذين بلغوا ضفة النهر ـ أسفل طريق الجسر ـ لم يلبثوا أن هدأوا ، وكأنهم أيقنوا من أنهم بلغوا ـ فى النهاية ـ مأوى أمينا .. وعادوا يلتقطون أدواتهم وأمتعتهم التى كانوا قد ألقوها أرضا . وأسرع الأقوياء من الرجال الى قواربهم المستديرة ـ الشبيهة بالسلال ـ فشرعوا ينقلون الهاربين ، ويجدفون بكل ما أوتوا من قوة !

وفى لحظة وجيزة ، كانت القوارب قد غصت بالشيوخ والنسوة اللائى حملن أطفالهن على أكتافهن .. أما الشبان ، فاندفعوا الى الماء ، يعبرون النهر سباحة . وأفرد القارب الأخير للأمتعة التى لم يلتقطها أصحابها ..

واذ أصبحت القوارب فى عرض النهر ـ وهى تتمايل باضطراب ينذر بالخطر ـ أخذ العابرون يرتجفون خوفا ، اذ فطنوا الى أنهم أصبحوا فى مساحة مكشوفة ، مما يجعلهم هدفا سهلا للقنابل .. ولم يجرؤ أحد على الالتفات نحو القرية الصغيرة ، والشاطىء الذى وقف عنده من لم تتسع لهم القوارب ، ينتظرون دورهم فى العبور ، وهم نهب للرعب ، خشية أن يصيبهم العدو ، قبل أن تعود اليهم القوارب ..

ولكن المجدفين راحوا يجدفون فى استبسال مستميت ، فعادت القوارب مرات .. وعندما تمت آخر رحلة عبر النهر ، وتم نقل جميع الأمتعة الى الضفة الأخرى ، استرد الهاربون هدوءهم ، وانبطحوا على الأرض ، يرسلون أبصارهم نحو القرية التى هجروها !

● ●

● **كانت** سماء القرية تتوارى فى سحب من دخان اسود ، تمزقه ـ من حين لآخر ، ألسن اللهب ! .. وأخذت أعمدة الدخان وألسن اللهب تتمازج وتتلوى كالأفاعى المذعورة .. وامتدت الحرائق من أحد أطراف القرية ، حتى بلغت المبانى الرئيسية فيها ، ثم تشعبت فانتشرت فى كافة الأنحاء ، واجتاح الدخان كل شىء .. والرياح تحمل الرماد الى ضفة النهر ، ثم عبره الى الضفة الأخرى ، لتصفع به وجوه الهاربين الذين التصقوا بالأرض فى ألم وذهول ، وقد سمرتهم اليها فجائية الأحداث والدمار ..

ومسح أحد الرجال وجهه الذى كساه الرماد ، ثم أخذ بصرخ ، وهو يحدق فى يده : « انظروا ! .. ثمار كل تلك السنين من الجهد والعناء ، تتلاشى فى الدخان .. أهذا مصير العمل الدائب والحرمان ؟ .. يا الهى ! »

وسمع كل امرىء هذه الحسرة ، فكأنما كانت اشارة بدء ، اذ أخذت الدموع تسيل من العيون .. وأفلتت من الرجال زفرات أسى .

ولكن أحد المبرزين فى القرية ، صاح بصوت قوى : « ان المصيبة مصيبة الوطن بأسره ، فلا تعتقدوا أن منازلكم وقريتكم هى التى أحرقت فحسب ! »

وبينما هو يتكلم ، صرخ أحد الموجودين : « أنظروا ! .. هناك رجل على الشاطىء .. ومعه ثور ! »

واتجهت الأبصار جميعا الى الضفة المقابلة .. كان هناك رجل حفا ، لاح خلال الدخان ، وهو يقود ثورا ، ويسير فى خط متعرج ، وكأنه كان يحاول تفادى الضربات التى كان يوجهها اليه خصم متوار عن الأنظار . وعرف القرويون الرجل .. كان « ترونج به » ، وثوره .. وراحوا ينادونه ، ويحيطون أفواههم براحاتهم ، حتى تتضخم أصواتهم وتبلغ الشاطىء الآخر للنهر . ولكن .. **أكان من الممكن أن يسمع نداءاتهم وسط ضجيج القنابل والمفرقعات والمصفحات وطقطقة الأخشاب وأعواد الغاب المشتعلة ؟**

ولوح « ترونج به » بيده ، ثم شد الحبل ليقود الثور الى منحدر يفضى الى حافة النهر .. ولكنه ما لبث أن غير اتجاهه فجأة ، ولاح أنه أراد أن يحتمى خلف جسم الحيوان .. وفجأة ، أنزل يديه وألصقهما ببطنه ، بينما انتفض الثور جامحا ، وأفلت وانطلق مترنحا ، وكأنه أصيب هو الآخر .. وأيقظ هذا المشهد الذعر فى القرويين من جديد ، وقد تبينوا أن الخطر يلاحقهم . وانطلقوا يجرون على غير هدى ، مندفعين نحو مزارع الأرز التى جفت لطول ما هجرها أصحابها !

● ●

● **من خلال** أحراش الغاب ، تراءت — أخيرا — منازل سمراء وحمراء .. تلك كانت طلائع منازل قرية (نكون) ، وقد بدت — بمتانة بنيانها — بمثابة ميناء أو مرفأ يلوذون به من الموت الذى كان يلاحقهم من ضفة النهر الأخرى !

وأخذوا يركضون الى (نكون) بأقصى ما وسعهم من سرعة ، وقد تهدجت أنفاسهم ، وانصب عرقهم انصبابا .. وكان القادرون يأخذون بأيدى المسنين ، ويجرون وراءهم الأطفال .. ولكنهم — بعد أن عبروا نحو اثنتى عشرة مزرعة — فوجئوا بجماعة أخرى من الهاربين تبرز من دغل الى يمينهم ..

وخيل اليهم أنهم ينظرون الى صورتهم فى مرآة : كان الآخرون مثلهم ، جمهرة من الناس ، مثقلين بالأدوات والحزم ، يفرون مرتجفين والموت فى أعقابهم .. فمن الجانب الآخر للدغل ، كان ثمة خط من النيران ، تنطلق من ورائه القنابل كثيفة مركزة !

وصاح شخص ما : « انها عملية تطويق ، فهم على جانبى النهر ! .. كيف السبيل الى النجاة ! »

لقد أدرك الهاربون انهم وقعوا بين نارين ، بعد أن ظنوا أنهم قد بلغوا ملجأ أمينا ، فى قرية منعزلة عن المعركة !

ـ كيف السبيل الى النجاة ؟ !

وجمدوا فى أماكنهم ، لا يدرون الى أين يذهبون .. وأخذت حلقة النيران تضيق من حولهم فى كل لحظة .. وازداد ارتفاع قصف المدافع ، وهى تقترب من ناحية (نكون) !

وانبعثت من الفريق الآخر ـ من الفارين ـ صيحات التحذير :

ـ اتبعونا ، فنحن على دراية بكل الطرق ! .. اننا نيمم شطر (يين دا) ، لنختبىء فى الجبال !

وعادوا الى الجرى ، يحاولون اللحاق بالجماعة الثانية !

● ●

● **أخذت** حدة الشمس تخف فوق مزارع الأرز ، وهدأت حرارة الهواء .. ولم يجرؤ أحد من القرويين على التوقف ، بالرغم مما أصابهم من ارهاق . بل أن أحدا لم يعد يحفل بأنين الشيوخ . وعويل النسوة والأطفال .. واستمر الجميع فى هرولتهم خلال السهل المقفر ، المترامى .. **وزاد الطين بلة ، أن أخذت السحب المنخفضة تتكاثف . ثم تساقط المطر مصحوبا ببرد قارس ! .. ولكن ، ماذا بهم من المطر والبرد ؟ .. لم يكن القوم يفكرون الا فيما بقى من مسافة بينهم وبين الملاذ الأمين** .. واذ كان الذين قدموا من (نجين)

يجهلون موقع (يين دا) ، فقد كانوا يسألون العارفين ، فيجيبهم هؤلاء :

ــ لا تزال المسافة بعيدة .. هناك جسر معلق فى الفضاء ، فوق مجرى مائى .. عندما تجتازونه ، تكونون قد وصلتم الى مقاطعة (يين دا) !

وما لبث الجسر الصغير أن لاح ــ خلال ستار المطر وضباب المساء ــ وكأنه يطفو فى الهواء ، وعوارضه الرقيقة ، المصنوعة من الغاب ، تتأرجح وسط الرياح بشدة تنذر بالخطر .. والليل يهبط مسرعا ، والسماء محجوبة بسحب سوداء كثيفة ، ينعكس عليها وهج النيران .. فكأنما السماء حلق وحشى خرافى مرعب ، ينبعث منه دخان ولهب !

واذ ازدادت معالم الجسر وضوحا ، ابتسم بعض الهاربين ، وقد أخذت الطمأنينة تخالجهم .. كان قصف القنابل لا يزال مركزا ، وانفجاراتها بعد قريبة ، ولكنهم شعروا بأنهم زايلوا نطاق الخطر .. وراح بعض المسنين يلهجون بالدعوات ، وعيونهم معلقة بالجسر المتاخم للحدود !

● ●

● **على أن** الحيرة عاودت القوم ، عند ما بلغوا الجسر المعلق ! .. لم يكن مجرى الماء واسعا ، ولكنه كان بالغ العمق .. وكان التيار سريعا وقويا ، والمسافة بين أسفل الجسر وسطح الماء لا تجاوز الشبر . ولم يثر بنيان الجسر عجب أحد : كان مكونا من سيقان من الغاب طويلة ــ بعرض المجرى مربوطة من الطرفين ، ومرتكزة فوق مجموعات أخرى من الغاب ، كل وحدة تتألف من ساقين على شكل صليب ، غرست فى المياه لتكون دعامات .. وكان ثمة سياج من الغاب المضغوط أقيم على جانبى الجسر ، ليتكىء عليه العابرون .

وفى غمرة القلق ، انبعثت نصائح الهاربين وتساؤلاتهم :

ـ الآن .. لم يبق الا أن نجتاز الجسر !

ـ نعم ، هذا أمر يسير على الشباب .. ولكن ، ما شأن الشيوخ والأطفال ؟ .. وكيف تنقل الأمتعة فوق الجسر ؟

وسأل أعيان قرية (نجين) زملاءهم من قرية (نكون) :

ـ اما من طريق آخر لعبور النهر ؟ .. ليس بوسعنا أن نظل هنا جميعا ، فى انتظار أن يعبر القوم النهر واحداً واحداً ، فوق هذا الجسر الضعيف !

وفجأة ، وقع انفجار رهيب وراء القوم ، على مسافة مائة متر تقريبا ، فقطع الحوار ، ونثر الوحل على رؤوس الهاربين . وتوالت الانفجارات ! .. ولعل المدافع كانت تطلق قنابلها جزافا من الشاطىء الآخر ، ولكن الهاربين ظنوا أن العدو يصوب قذائفه عليهم ، فاستبد بهم الذعر ، وعلا صراخهم ، وغاص بعضهم فى الماء يحاولون اجتياز المجرى سباحة ، وتدافع بعض آخر نحو الجسر ، فأخذ يهتز بعنف تحت ثقلهم ..

وبقيت قلة ضئيلة احتفظ أفرادها برباطة جأشهم ، وراحوا يحاولون اقرار قسط من النظام ، ويرفعون أصواتهم وسط الصخب والضجيج : « اعبروا الجسر فرادى ! .. واحدا واحدا ، ولا تثقلوه ، والا غرقتم جميعا ! »

ولعل هذه التحذيرات كانت تذهب دون تأثير ، لو أن دفعة أخرى من القنابل تبعت الأولى ! .. ولكن القنابل انقطعت .. غير أن الجسر كان مبعث خطر لا يقل عن خطر المقذوفات ، اذ أخذ يهتز بشدة تحت الخطوات الملهوفة ، وكأنه وشيك الانهيار .. وما كان انهياره ـ فى المياه السريعة الجريان ـ ليثير دهشة أو عجبا ازاء التزاحم المضطرب !

● **وبعد أن** عبر الجسر عدد من الأفراد ، تقدمت اليه عجوز حملت على كتفها عصا طويلة من الخشب ، علقت فى طرفيها سلتين . وكان الليل قد لف المكان ، فلم ير الرجل ـ الذى كان خلف العجوز ـ شيئاً من محتويات السلتين ، ومن جذب الحبل الذى علقتا به ، وقال للمرأة :

ـ ارمى هذا فى النهر ! .. انك تكونين سعيدة الحظ لو استطعت العبور وحدك ، دون أن تثقلى الجسر بالسلتين !

وتشبثت المرأة بالسلتين فى اصرار ، وقد رابها قول الرجل الذى لم تكن تعرفه .. وكأنما أثاره اصرارها ، فهز السلتين بخشونة ، واذا بصراخ طفل ينبعث من احداهما .. فصاح : « ماذا تحملين فيهما ؟ »

ورأى المحيطون بهما طفلا ـ فى حوالى الثالثة أو الرابعة من عمره ـ منكمشا فى احدى السلتين .. بينما استغرق فى النوم ـ فى السلة الثانية ـ وليد صغير !

ـ يا الله !.. كيف تريدين عبور الجسر بهذين الولدين ؟

وأجابته السيدة فى جفاء : « سأفعل .. لقد عبرت ـ من قبل ـ جسورا أسوأ حالا ، بأحمال أثقل ! »

وأخذ القوم يرقبون المرأة ـ بانفعال بالغ ـ وهى تتقدم ببطء فوق أعواد الغاب، تحت ستار المطر الدقيق ، الذى تخلله ضوء القمر الشاحب .. كانت محاولتها ضربا من المجازفة ! .. وقال بعض الحاضرين لأنفسهم ، وهم يقدرون الاحتمالات ، ان نجاحها فى بلوغ الشاطىء الآخر بسلام ـ اذا

البقية فى صفحة ١٥٠

قصة من الكونغو

خطة محكمة ولكن ..!

للكاتب البلجيكي : "ڤير دان"



خطة محكمة ، ولكن ... ؟!

كان قويا ، متين البنية ، بالرغم من أنه لم يكن صغير السن .. ولقد عاش ، وناضل ، واحتمل كثيرا من الحرمان ، فى العمل فى مناجم أفريقيا .. وعند ما آن له أن ينعم بثمار جهوده ـ الطيبة منها والشريرة على السواء ـ ظهر شاب يهدد أمنه ومستقبله ، ويسعى لحرمانه ـ فى الوقت ذاته ـ من زوجته الشابة الحسناء . فماذا يفعل ... ؟

هذا ما تكشفه لك القصة التى يقدمها « كتابى » على الصفحات التالية .. قصة تصور أبدع تصوير خفايا النفس البشرية ، كما تصور ـ أوضح تصوير ـ ما كان يفعله الاجانب فى القارة التى كانوا يسمونها : القارة المظلمة !

● **لم يكن** ثمة غير شعاع واحد من الضوء ، ينبعث من احدى النوافذ ، فى كتلة الظلام التى لفت مكاتب « شركة معادن كيماش المساهمة » .. وكان صرير الحصى ـ المنتثر فى الممر ـ تحت وقع أقدام « آنسون » ، يعكر صفو اللحن الذى كان يصدر عن « الجوقة » الليلية للصراصير البرية !

كانت الساعة تناهز الثامنة مساء .. ولم يثر دهشة آنسون » ما بدا له من نشاط « سامى » أمين المخزن ـ وهو شاب خلاسى يختلط فى عروقه الدماء البيضاء والزنجية اذ يبدو أن شعوره بالقدر الضئيل من الدماء البيضـــاء ـ التى كانت تجرى فى عروقه ـ غرس فى ذهنه الرغبة فى أن يكون ممتازا ومتميزا عن سائر المستخدمين الملونين ، الذين كانت بلادتهم الواضحة تسود مكاتب « شركة معادن كيماش المساهمة » .

وتذكر ((آنسون)) ـ كما يفعل الكثيرون حين يسترجعون ذكريات شبابهم من قبيل اللهو والتسلية ـ أنه ظل فترة طويلة يعتقد أنه والد ((سامى)) ! .. أما الآن ، فقد كف عن هذا الاعتقاد ، كلا .. لم يكن هو والده ! .. لقد كانت معرفته بالنساء الوطنيات ، كافية لأن تصرفه عن هذا الوهم !

● ●

● **ودفع** ((آنسون)) الباب الزجاجى ـ الذى كان يعكس على الممر ضوءا خافتا ـ فنهض ((سامى)) واقفا .. كان على الدوام يبدو موزعا بين الولاء المفرط ، وبين صلف الزنوج .. وكان ((آنسون)) يتساءل أحيانا عما اذا كان هذا الصلف ـ الذى لا يكاد يبدو ـ كان يستمد جذوره من ذلك الاعتقاد بأبوته الموهومة .. ثم تمتم لنفسه : ((ليكن ! .. اذا كان هذا الاعتقاد يسره ، فليتشبث به ، ولكن .. على أن يحتفظ لنفسه !))

وبانحناءة تذلل أخيرة ، أعاد ((سامى)) اغلاق الباب خلفه .. ودلف ((آنسون)) الى مكتبه ، دون أن يوقد المصباح .. كان ضوء القمر يضفى من النور ما يكفى لانجاز ما كان يعتزم أن يفعل .. وكان التعب قد أضناه ، فجلس متثاقلا فى المقعد الوثير ، بعيدا عن بساط النور الفيروزى الذى كان القمر ينشره تحت النافذة الوحيدة .. وأغمض عينيه ، غافلا عن سحر الليل الأفريقى .. **رحماك يا رب ! لكم هو مرهق ! .. ثلاثون عاما فى أفريقيا ، لا تتخللها الا بضعة شهور ـ التقطها من وقت لآخر ـ لقضاء أجازة سريعة فى أوروبا .. ولا يزال هناك احتمال قضاء عشرة أعوام أخرى ، فى هذه الاصقاع !**

وتضاحك فى مرارة ، وهو يقول لنفسه : « انك لتوهم نفسك يا « آنسون » .. لم يعد ثمة عشرة أعوام .. لم يعد ثمة عام واحد ، ولا حتى ستة أشهر ! .. « أنهم » سيطيحون بك قبل ذلك .. سيشمون رائحة السر قبل ذلك ! .. « أنه » سيشم رائحة السر ، بأنفه الصغير القذر ، أنف الدخيل ، الوصولى .. « ابن الذوات » ! .. **ثم ماذا ؟ .. بتقرير سريع ، بل بغير تقرير .. تكفى بضع كلمات ، وبضع أرقام ، فى خطابه القادم الى « پاپا » ! .. وبعد ذلك ، ينفسح الطريق أمامه ليحتل مقعدك الوثير ! »**

وراح « آنسون » يستعرض حياته الوظيفية ..

سنوات التنقيب عن المعادن .. والتقدم البطىء المنهك داخل الأدغال .. لحظات الأمل العابرة .. الاكتشافات التافهة بعد شهور ، بل بعد سنوات من العمل المضنى بلا جدوى ... والملاريا .. واليأس !

● ●

● **كان** « آنسون » قد جاء الى (الكونغو) بعد وفاة أمه ، ليلحق بأبيه الذى كان يعمل فى التنقيب عن المعادن فى أفريقيا . ثم توفى الأب ، فواصل هو التنقيب لحسابه الخاص ، ولكن سنوات الأزمة الطاحنة هى التى قضت على استقلاله .. وقد شعر بسعادة عظيمة ، حين وجد عملا فى « شركة معادن كيماش » ، التى أنشأها — فى ذلك الوقت — بعض المتفائلين من رجال المال .. وكان هو (آنسون) الذى حقق للشركة ما بلغته من نجاح ، فهل يكون هذا هو جزاؤه ؟ .. كانوا قد عينوه مديرا بطبيعة الحال ، ولم يكن مرتبه ضئيلا ، ولكنه مع ذلك لم يكن يوازى ما يستحق ..

« ان سياسة الشركة تستهدف الاقتصاد ، يا سيد

آنسون » ! .. هكذا اعتاد أن يقول والد هذا الفتى « أورين سميث » .. هذا الأبله الذى ...

لم يكن من المستغرب ــ بعد هذا ــ أن يحاول « آنسون » أن يقتطع لنفسه جزءا من كل هذا الذهب الذى كان يملأ به أيدى أعضــاء مجلس الادارة .. ولم يكن هــذا بالأمر العسير ، فقد كانوا جميعا يولونه ثقتهم ، ولا يفتأون يقولون عنه : « السيد آنسون النزيه ! » .. ثم ان هذه البقعة ــ التى كان مقرا لعمله ــ كانت تخلو من كل ما يمكن أن يجتذب مفتشى الحسابات ومن على شاكلتهم من الخبراء !

كان بوسعه ــ منذ الآن ــ أن يستغنى عن تلك المكافأة الضئيلة التى كان يمنحها « أورين سميث » ــ فى شح وتقتير ــ لمن يسمونهم بالمندوبين السامين للشركة .. وقد كان هو الذى يقوم ــ فى نهاية كل أربعة أشهر ــ بالاشراف على نقل شحنة الذهب المستخرج ، الى محطة السكة الحديدية التى تؤدى الى ميناء (سيموس) .. وكان يحرص على أن ينتخب للحراسة أشهر المشاغبين من الجنود الوطنيين .. وكان فى كل شحنة ، ودائما ، صندوق كتبت عليه كلمة « آلات » ، يرسل الى عنوان معين فى (سيموس) ، حيث يودع بصفة أمانة . **ولما كان « آنسون » يتولى بنفسه تحرير الوثائق ، فقد كان يستطيع ــ بغير ما مشقة ــ أن يجعل كل شىء يبدو صحيحا .. فلم يكن يعوزه الا عمليــة تزييف بســيطة فى احصائيات الانتاج وفى أرقام الحسابات ، ليكون فى مأمن من كل خطر .. بشرط ألا يعقب ذلك عملية مراجعة جادة !**

ولكن .. ها هم أولاء يرسلون اليه « أورين سميث ــ الابن » ، ليقوم بالاطلاع على سير العمل فى المشروعات التى كان مقررا أن يتولى ادارتها فيما بعد .. ومما زاد الطين بلة ، أن هذا الابن كان يقوم بعمله بطريقة جادة !

● **انطلقت** من بين شفتى « آنسون » بضع شتائم بصوت خافت .. لقد نجح حتى اليوم فى اقصاء « أورين سميث » عن الجانب الادارى من العمل ، ولكن .. كان لابد لذلك من نهاية .. « وهم » قد ألمحوا له صباح اليوم – فى أدب ، ولكن فى حزم – بأن السيد « أورين سميث – الابن » يهتم فعلا بالجانب الفنى للعمل ، ولكن استعداداته وميوله الشخصية تجعله أكثر اتجاها الى الاهتمام بالجانب الادارى .. ومن ثم فانه اعتزم – فور انتهاء العطلة الأسبوعية – القيام بفحص دقيق للحسابات والأعمال الادارية بصفة عامة .

كان « آنسون » يعلم أن هذا لابد أن يحدث فى يوم من الأيام .. ولكنه لم يكن يتوقع أن يحدث ، قبل أن يقرر هو ذلك .. **لم يكن يتوقع أن يحدث ، قبل أن يتمكن من أن يجعل بضعة آلاف من الكيلومترات تفصل بينه وبين العدالة فى المستعمرة .. وبعد أن يتم ذلك ، وبعد أن يجمع أمواله وينقلها ، سيقولها عالية : « الوداع ! » ..**

ولقد كانت قوانين تسليم المجرمين غير معروفة كثيرا فى أمريكا اللاتينية ، فيما يقال .. فضلا عن أنه بوسع أى امرىء أن يستبدل باسمه اسما جديدا ، ما دام فى يديه مال

وها هى ذى الخطة الرائعة تبوء بالفشل ..

لقد أخذوه على غرة ، قبل الأوان .. قبل الأوان بكثير .. وحتى لو حاول أن يهرب الآن ، فلن يجد تحت يده من المال ما يكفى لأن يتيح له النجاة بنفسه .. وأخذ يلعن الحيطة الحمقاء التى دفعته الى أن يضع كل أمواله فى الخارج .. وربما كان فى وسعه أن يتصرف ، لو أنه كان بمفرده ، ولكن .. كانت هناك « واندا » !

كان قد تذكر فجأة – اجازته الأخيرة – انه بلغ الخامسة

والأربعين من العمـر ، ففكر فى الزواج ، حين رآها .. حين رأى « واندا » ! .. وكانت خبرته بالنساء ـ ولا سيما الأوربيات منهن ـ ضئيلة ، فبدت له الفتاة أنسب أنثى له .. صحيح أن عمرها كان ـ عندئذ ـ يقل عن عمره عشرين عاما ، ولكن لا حرج .. فقـد كان قوى البنية بالنسـبة لسنه ، وما كان يمكن لأحـد أن يقدر عمره بأكثر من أربعين عاما .. ولقد غازلها ، ثم تزوجها قبل عودته الى أفريقيا بخمسة عشر يوما .. وسرعان ما توالت الأيام والشهور ، فاذا ثلاثة أعوام تنقضى منذ ذلك الحين !

وما كان يدرى ـ حين تزوج « واندا » ـ ان كان يحبها حقيقة . ولكنه أصبح لا يتصور الحياة بدونها ! .. وأصابته غصة فى حلقه .. انه لا يستطيع أبدا أن يفقدها ، مهما يكن الثمن ! .. لا ، لا ينبغى أن يفقدها أبدا !

● ●

● وخالجه شعور جديد ، لم يكن قد اتضح له فى هذه اللحظة .. انها لم يتح لها أن تعاشر طوال هذه السنوات الثلاث الا موظفى « شركة معـادن كيماش » ، وقلما كان يحدث أن تلتقى بهم ، وكان أغلبهم ـ على أى حال ـ قرويين لم يكادوا يتعدون مرحلة الطفولة ، أو شيوخا محطمين ! .. لذلك فان وصول هذا الشاب أيقظ فى نفسه ـ لأول مرة ـ الشعور بالغيرة .. ولقد حاول « أورين سميث » ـ منـذ أول وهلة ـ أن يغازل « واندا » . وكانت هى ـ فى بادىء الأمر ـ تصده ، ولكنها لم تلبث بعد ذلك أن تخاذلت ، وان كانت لم ترفع الكلفة بينها وبينه !

ولم ترق لانسون هذه اللعبة كثيرا ، بل انهـا أثارت حفيظته ضد ذلك الدخيل ..

بعد هذا كله ، وعند النقطة التى وصل اليها ، ما الذى

يدعوه الى أن يتراجع ؟ .. لابد له من أن يمضى فى تنفيذ خطته ، وأن يفعل ذلك بمهارة ، وأن يتجنب ــ وبأى ثمن ــ اثارة شك « سميث » .. ان أمامه الليل بطوله ليعد ضربته ، كما أن أمامه نهار الأحد كذلك ! .. لابد أن يضع كل شيء فى موضعه الصحيح ، حتى لا يرتكب أية حماقة .. فان أقل خطأ قد يودى الى الهلاك !

ومهما يكن ، فان أسوأ ما يمكن أن يحدث ــ بعد احتراق السجلات .. فى غير تعمد ظاهر ــ هو أن توجه اليه تهمة الاهمال ، وأن يحال الى المعاش قبل الأوان ! .. فهو لن يترك أى دليل يشى به .. أما الشكوك .. يا الهى ، انها لا يمكن أن تحوم أبدا حوله !

● ●

● وما أن اتخذ قراره ، حتى بدأ يفكر فى خطته بطريقة جادة .. لا داعى للعجلة ، فهو لن يفعل شيئا هذا المساء ، ومن ثم فأمامه فترة ما بعد ظهيرة اليوم التال كلها .

لا ، ليس هذا المساء .. عليه أن يتجنب اثارة الشك فى نفس « أورين سميث » ، بقيامه بنشاط غير عادى .

ان مباراة فى « الجولف » مع العدو ــ قبل المعركة ــ لشيء رائع ! .. شيء مريح للأعصاب ! .. ولقد أعاد هذا الى ذهنه أول خطة وضعها لانقاذ موقفه . كانت خطة خطيرة جدا .. فضلا عن أنها تتضمن .. حياة بشرية !

ذلك أن رؤوس الجبال ــ التى تطل على ودبان (كاربوبو) الضيقة ــ تعلو الشلال بعشرين مترا ، ومن بينها رأس صخرى ، يبدو كأنما أعد خصيصا ليكون مريضا للاستطلاع .. وهناك ، يمكنه التظاهر بالاعياء ، أو التعب المفاجيء ، فيتهالك قائلا : « فى مثل سنى يا سيد سميث ، وبعد ثلاثين عاما فى أفريقيا ، هل لى أن أسألك بضع دقائق

للراحة أمام هذا المنظر الرائع ؟ .. شكرا ، شكرا جزيلا .. هل تسمح لى ؟ »

وتمر لحظة .. وقد يظلان يلهثان قليلا .. ولا يلبث أن يقول : « هل لك فى شراب مرطب لا ضرر منه ؟ .. زجاجة كوكاكولا ؟ .. عظيم ! .. يا غلام ، اذهب واحضر لنا من النادى زجاجتين من الكوكاكولا ! »

والآن ، رحل الشاهد الوحيد لبضع دقائق ، فالنادى على مسافة تتجاوز خمسمائة متر ، خلف نتوء فى الجبل .. ثم ، دفعة بسيطة .. يا للسماء ! يا للشاب المسكين ! .. لا أمل فى النجاة ، فان الهوة سحيقة ، يصل عمقها الى عشرين مترا ، وفى أسفلها الصخور ، والماء — والشاب لا يجيد السباحة .. يا للمسكين ! يا للشاب المسكين .. كم كان لطيفا !

ولكن ، كلا ، يا للشيطان ! .. هذه مجازفة تنطوى على أخطار أكثر مما يجب ! .. ان الخطة محكمة بالتأكيد ، وتخلو من أية ثغرة ، ولكن .. ما الذى يجرى بعد ذلك ؟ .. سيأتى « أورين سميث — الأب » مسرعا .. وبعد لحظات من الراحة يقضيها فى ابداء الألم الأبوى الشريف اللائق ، لا يلبث أن يقول : « يا سيد آنسون .. ان العمل هو أنجح دواء للهم .. هو وحده السبيل الى النسيان ! .. فلننظر كيف سارت أعمالنا هذا العام ؟ .. **اننى أفضل أن أحبس نفسى معك بضعة أيام ، حتى أكون لنفسى فكرة عن نتائج السنة المالية الجارية .. هيا ، هات لى دفاترك لو سمحت ! .. لا تنسى دفاتر السنوات الماضية ، حتى تتسنى لى وسيلة للمقارنة ! »**

يا للعجوز الخبيث الرهيب !

وارتعد آنسون .. كلا .. لن يكون القتل مهربا ! ..

يكفى حريق بسيط .. نار نشعلها علامة على الفرح ، كما يفعل فتيان الكشافة .. لا ضير فى هذا ، وسيكون البرد القارس تفسيرا كافيا للمدفأة التى تركها « السيد آنسون الطيب » موقدة ، عندما غادر الشركة .. كان المسكين مرهقا ، فقد قضى ساعات الليل ساهرا فى جمع كل الوثائق التى طلبها السيد « أورين سميث » .. وهذا القط الغبى ، الذى اجتذبه الدفء ، ولا توجد غير اشلائه المحترقة ، هو بلا شك الذى قلب المدفأة فوق البساط ! .. وستكون التعليقات مترفقة رحيمة : « حقا ان ذلك لمن سوء الحظ ، ولكن لا توجد خسائر فى الأرواح ، هذا هو المهم ! .. ونتعشم ألا يوجه الى « آنسون » المسكين أى لوم جارح ، فهو سيبلغ سن الاحالة الى المعاش قريبا .. وبالمناسبة ، من الذى سيخلفه فى ظنكم ؟ »

● ●

● **تنحنح** « آنسون » تعبيرا عن الرضى .. ولكن ، كلا بالتأكيد .. ليس هذا المساء ، فهو مرهق جدا .. بيد أن سهرة الغد كفيلة على أية حال ـ بأن تتيح له وقتا كافيا لتدبير الأمر .. **ثم أن المستخدمين من أبناء البلاد يكونون ـ مساء الأحد ـ منهكين ، أثر احتسائهم الخمر طوال يومين متوالين ، وهذا مما يمنع مغفلا مثل « سامى » من أن يأتى الى مكاتب الشركة ، فينتبه الى الخطر وينذر به قبل الأوان !**

وتطلع الى الساعة المضيئة ، التى كانت تحيط معصمه : لم تكن قد تعدت التاسعة والنصف .. وبدا له الوقت طويلا جدا .. بقيت أربع وعشرين ساعة !

واستوثق ـ قبل انصرافه ـ من أن المدفأة الكهربائية كانت تؤدى عملها بشكل طبيعى .. ان كل شىء سيسير على ما يرام .. كان متأكدا من ذلك !

وفى الخارج ، لذعته برودة الليل ، فأسرع الخطى .. ستندهش « واندا » اذ تراه يعود مبكرا هكذا ، اذ كان قد أخبرها بألا تنتظره ، لأنه لن يعود قبل منتصف الليل ..

واقترب من البيت ، فأدهشه أن رأى الظلام والسكون يسودان كل شىء .. وتسال عبر الممر المفضى الى المدخل الرئيسى ، فأصطدم بسيارة كان نصفها يختفى بين دغلين ، فلا سبيل الى رؤيتها من الخارج .. كانت سيارة « أورين سميث » .. ماذا فى الأمر بحق الشيطان ؟ !

ومكث فترة طويلة جامدا ، لا يتحرك ، وقد بدا له أن عقله قد تعطل تماما ، فعجز عن التفكير .. حتى أخرجته من غيبوبته حركة خفيفة ، صدرت عن الباب وهو ينفرج قليلا ، فتراجع متسللا الى جوف مجموعة من شجيرات الزهور .. **وفى ضوء القمر ، رأى « واندا » و « أورين سميث » يخرجان من المنزل صامتين ، ويتجهان صوب السيارة ..** وغابا عن ناظره لحظة ، ثم لم يلبث صوتهما أن تناهى اليه فجأة ، فى وضوح تام :

ـ انصرف الآن .. اننى خائفة .. او رجع « وليم » .. !

ـ لا خطر على الاطلاق ، هيا بنا ! .. ألم يخبرك بأنه لن يعود قبل منتصف الليل ؟

ـ لا يا حبيبى ، انصرف ! .. فى مساء الغد ، نستطيع أن نفعل ما يروق لنا ، دون ما خطر .. اذهب ! أرجوك !. لم يعد علينا أن ننتظر لأكثر من أربع وعشرين ساعة ، ثم يلتئم شملنا الى الأبد ! .. لا ينبغى أن نخاطر .. سيكون الأمر رهيبا ، لو خالجه أى شك !

وهنا ساد صمت طويل .. لابد أنهما كانا يتعانقان .. وقاوم « آنسون » رغبة مفاجئة فى أن يندفع نحوهما .. ومرة أخرى ، سمع صوت زوجته وهى تقول « اذهب الآن

يا حبيبى ! » .. ثم سمع محرك السيارة يدور ، وسرعان ما انطلقت السيارة بعيدا ، حتى لم يعد يبدو منها سوى بصيص من النور الأحمر فى حلكة الظلام ..

● ●

● **الله** وحده يعلم كم من الوقت مكث « آنسون » فى ذلك المكان ، منكمش فى جوف الدغل .

وراح يحدث نفسه ، وهو مذهول :

« واندا حبيبتى ؟ ! .. غير معقول ، لابد اننى أحلم !.. لابد أننى أحلم ، ولن ألبث أن استيقظ ! .. أنت مرهق آنسون .. انها الملاريا ، انه كابوس الحمى .. اننى أكرهك يا « واندا » ! .. أكرهك ؟ ! .. كلا ، لا أستطيع .. بل أكرهه هو ، هو .. الوغد الصغير القذر .. **ماذا كانت تعنى بقولها بعد أربع وعشرين ساعة ؟ لم يعد أمامنا أن ننتظر أكثر من أربع وعشرين ساعة ؟ .. أتراها سترحل معه ؟ تهجرنى من أجل هذا الولد ؟ هذا الوغد الطائش ؟ أولى بها أن تقتل .. ولكن كلا ، بل هو الذى يقتل ! »**

وارتدت الى ذهن « آنسون » الخطة التى كان قد دبرها .. خطة بسيطة ، هى النموذج الرائع للجريمة الكاملة ؟ .. جريمة بدون دافع ، وبدون فاعل ، وبدون شاهد ! .. دفعة بسيطة ، بحركة ودية تقريبا .. بالابهام لا أكثر ! .. وهمس لنفسه : « وبعد ذلك ، لا أهمية للمخاطر ؟ .. فلأفقد كل شىء ، ولا أفقد واندا ! »

وفجأة ارتعدت فرائصه .. كان البرد قد أصابه دون أن يدرى .. وكان النور الذى أضىء فى احدى الحجرات قد أطفىء ، وسيطر النعاس على مظهر المنزل .. وتسلل « آنسون » كاللص خلال باب « الجراج » ، كى يتجنب السير فوق الحصى .. لم يكن يريد أن يرى « واندا » هذا المساء ، فهو لن يستطيع أن يتحملها ! ..

● **واستيقظ** عند الفجر ، بعد أن قضى ليلته مستلقيا على أحد المقاعد ، وكابوس مروع يقلق نومه .. وكانت الساعة السادسة صباحا . وبكل ما استطاع من هدوء ، تسلل الى الحمام .. وجرح نفسه مرتين وهو يحلق ذقنه ، ولكنه كظم حنقه .. **« اياك يا آنسون واضطراب الأعصاب ! .. انك ستحتاج الى كل ما لديك من رباطة جأش ! » ..**

وأفاده حمام فاتر ، وأكمل انتعاشه قدح من القهوة .. وكانت معدته خاوية ، ولكنه لم يستطع أن يأكل شيئا ، وانما مزج قهوته بكأس كبيرة من « الروم » ، مما أشاع فيه حيوية ودفءا .. وشعر بأنه أصبح مستعدا للعمل !

وبينما هو يهم بالخروج ، سمع صوت سيارة تتوقف امام المنزل ، فتوقف قلبه عن النبض لحظة ، وشعر بتقلص يعتصر معدته .. يا الهى ! لو أن دخيلا ثقيلا ..

ولكنه أحس بروحه ترتد اليه ، حين سمع صوت « أورين سميث » يناديه .. لقد كانت السماء تساعده بالتأكيد ، فها هو ذا الغبى قد جاء الى الفخ بقدميه !

ـ هاللو يا سيد آنسون ! .. لقد فكرت فى أن مباراة صباحية فى الجولف ..

ـ ان الطقس بديع ، كعهده دائما فى هذا الفصل من العام .. نعم ، بكل سرور .. طبعا ، بكل سرور !

وتظاهر بالحرج وهو يحضر قبعته وصديريته الصوفية ، ويتمتم معتذرا : « سيكون من العسير أن نعثر ـ فى هذه الساعة ـ على صبى لجمع الكرات .. سأستدعى ابن خادمى .. ولنضع مضاربنا فى حقيبة واحدة ! »

ووافق « أورين سميث » ، وهو شارد الفكر ..

كان كل شىء يبدو على ما يرام .. وكانت حلقات اللعب خالية من الرواد .. ولم تستطع الدقائق الأولى من التمرين

أن تكسب « آنسون » لياقته البدنية ، فكان يخطىء المرة بعد الأخرى ، حتى اضطر أن يتخلى عن الحفرات الثلاث الأولى فى الملعب لمنافسه الشاب ، وهو يعتذر قائلا : « أشعر بأننى لست فى كامل لياقتى هذا الصباح .. »

وكانا يتجهان معا ناحية الحفرة الرابعة ، عند قمة الجبل التى فوق الشلال .. فأجاب أورين سميث : « وأنا نفسى لست على ما يرام .. لسوف ندفأ وننشط أثناء اللعب ! » .. وقذف الكرة فانطلقت فى مسارها الصحيح وسقطت على بعد بضعة أمتار من قمة الجبل ، التى كانت تشد انتباه « آنسون » ..

ولم يلبث « آنسون » ــ حين قذف بالكرة بدوره ــ أن فشل فى تسديد ضربته ، فلم تبتعد الكرة سوى بضعة أمتار .. أما ضربته الثانية ، فقد أجاد تصويبها بحساب دقيق ، ومن ثم استقرت كرته بالقرب من كرة خصمه .. واتجها معا ناحية حافة القمة المطلة على البحر ، وقد أصبح الأمر الآن سهلا للغاية .. لعبة أطفال ! وحين وصلا الى كرتيهما ، استجمع « آنسون » كل طاقته ، **فقد حانت اللحظة الحاسمة** .. وسبقه « أورين سميث » قائلا :

ــ ما رأيك فى أن نتناول هنا شرابا مرطبا ، قبل استئناف اللعب ؟ .. هذا من شأنه أن يريح أعصابنا ، وربما تحسن مستوى لعبنا بعد ذلك !

ــ كنت على وشك أن أقترح عليك هذا .. ماذا تحب أن تشرب ؟ كوكاكولا ؟ .. يا غلام ، اذهب واحضر لنا من النادى زجاجتين من الكوكاكولا !

واختفى الولد بين الأشجار ..

ــ آه يا سيد سميث ، ما أروع هذه المناظر .. انها تنسيك وطأة ثلاثين عاما فى أفريقيا .. فى التراب ، فى الوحل

والملاريا .. أنظر الى الطبيعة ، وهذه الصخور ، وبخار المياه الناصع البياض ، الذى يتصاعد فيختلط بالسحب ، وسط زرقة السماء !

كانت اللحظة الحاسمة قد أوشكت .. فهاهما قد أصبحا وحيدين ، فوق صخرة معلقة بين السماء والأرض .. وشعر « آنسون » بأنه ثمل من فرط القوة .. ان حياة انسان بين يديه الآن ..

« اله .. أنا اله ! »

ثم .. الفضاء .. الماء .. الصخور .. وقد تقدم للقائها فى حركة رعب ، ويداه مبسوطتان فى حركة دفاع عديمة الجدوى !

.. ..

● **وكانت** « واندا » تنتظر فى لهفة وقلق ..

ولم تنبس بكلمة واحدة ، حين رأته يعود وحده !

ـ انتهى الأمر يا حبيبتى .. كأنما كان يسعى الى تيسير مهمتى ، فقد تقدم من تلقاء نفسه الى الحافة .. وكان يحدثنى عن الطبيعة ، والسماء الزرقاء ، و .. بدفعة خفيفة ، انتهى كل شىء !

وكان « أورين سميث » يبدو منتشيا ، حالما ، وهو يتكلم ..

ـ كان الأمر غاية فى السهولة .. ترى هل ... ؟

ولم تدعه يتم سؤاله ، اذ أدركت ما طاف بخاطره ..

ـ هيا يا حبيبى ! .. كيف كان له أن يشك فى الأمر ؟

وهز « أورين سميث » كتفيه ، وقال وهو شارد البال :

ـ كان رجلا ساذجا كل السذاجة .. بيد أنه كان متين البنية !

....



ترجمة : محمد بدر الدين خليل

● **كان** لاصطفاق الباب فعل رنين الساعة المنبهة على عقله ، فأيقظه من جموده وسكونه . فمن أغرب الأمور ، أن المرء يستطيع التعرف على صوت اصطفاق بابه كتعرفه على صوت انطلاق محرك سيارته !

ولم يكن بحاجة الى أن يلتفت ، اذ أدرك أن « رودا » هى التى صفقت الباب . ولو أنه توقف وأصغى ، لالتقطت أذناه دقات كعبى حذاءيها ، وهى تسرع الى الناصية ، حيث كانت فى انتظارها سيارة أجرة .. **كان موقنا من أن السيارة هناك فعلا ، وذلك الشاب « ويد » يفتح بابها وهو يرتجف لفرط التوجس والانفعال ..**

لا بد أن « ويد » سيبادرها قائلا : « ما كان أقسى الانتظار يا حبيبتى !.. لقد خشيت ألا تأتى . هل صادفت مشقة فى الحضور الليلة ؟.. هل تظنين أن الشك راوده ؟ »

ولا بد أن ضحكة « رودا » الخافتة ، المخملية ، ستنبعث وهى تقول : « يا له من شخص وديع !.. ما من مشقة البتة ، فهو فى طريقه الى النادى البغيض كعادته .. ونحن منطلقان فى الاتجاه المضاد ، نحو الأضواء المتألقة والموسيقى ..! »

● ●

● **وقال** فى نفسه : « هذه نتيجة الغباء الأحمق ، يا ستيفن هارتلاند .. هذا ما يتأتى عن زواج شيخ مخرف بفتاة كالنحلة تحوم سعيا وراء الرحيق الشهى !.. فى طريقه الى النادى ؟ !.. كأنها كانت تقول : فى طريقه الى القبر ! »

ولكن ، هل كان هذا مقصده الليلة حقا ؟.. لقد كان ثمة أمر علق بذاكرة « هارتلاند » فى تلك الأمسية ، وان لم تتضح له معالمه .. كل ما كان يتذكره هو أن عليه أن يذهب لمقابلة « مانيستى » بصدد ذلك الأمر . وأخذ يفكر :

« اننى لا أصيب حظا كافيا من النوم ، وان كان يبدو أن مخى يخلد النعاس من وقت لآخر ، فلست أدرك ما أفعل .. يا لها من صدمة ، أن أتبين أن جسمى يسير دون ارشاد من مخى ! اننى أفطن الى نفسى – أحيانا – فاذا بى فى منتصف سلم أرقى درجاته .. ووجدتنى – فى مرة أو اثنتين – أستخدم التليفون ، دون أدنى فكرة عما أقول .. انها أمور تحدث ، ولكنها لا تستغرق أكثر من ثوان .. ولا يبقى منها شىء فى ذاكرتى اطلاقا .. فكأنها حالة اظلام تام ! »

وكان بوسعه أن يتمثل صورة « مانيستى » ، برأسه المائل قليلا الى أحد جانبيه – كأنه عصفور يفكر فى أمر لا يفهمه – وصوت جهورى بدرجة تدعو للدهشة ، اذا قيس بحجم الجسم الذى يصدر عنه .. لا ريب فى أن مانيستى سيقول : « أنك ترهق نفسك بالعمل فوق ما ينبغى .. متى حظيت بآخر عطلة للاستجمام ؟.. أممم ، هذا ما خطر لى . سأعطيك دواء يكفل لك نوما أحسن .. انه أقراص .. ودواء مقويا ، لا ضرر منه . ولكن ما بك من الحالات التى تستطيع علاجها بنفسك .. راحة من العمل ، واستجمام واسترخاء كاملين ، واقصاء لكل الهموم عن العقل .. »

وهذه مسألة سهلة كل السهولة يا « ستيفن هارتلاند » ! .. ليس عليك سوى أن تنسى ، فحسب !

● ●

● **ولكن** هناك أمورا لا سبيل الى تناسيها .. أمور تثقل عقلك ، بل هى فى جوف عقلك .. بل هى فى قاعه ، تزحف منه الى أحلامك . لقد جاءت « رودا » مرة ، وقالت ان الأمر كله خطأ جسيم ، فهى لا تحب « توم ويد » .. **كان هذا فى المنام !..** ولقد جاء « توم ويد » يوما الى البيت ،

خلال ضباب كثيف ، واذا بحافلة تنحرف عن الطريق ، وتضغطه الى باب البيت بشدة ألصقته به ، وقد انبسطت ذراعاه الى جانبيه ، فكأنه « خيال المآتة » الذى يقيمونه فى الحقول لارهاب الطيور .. أو كأنه كان يحاول أن يمسك بالحياة اذ فارقت جسده .. **وكان هذا حلما آخر !**

ونبضت الذاكرة خلال أفكار « هارتلاند » ، لتبلغه رسالة !

أجل ، هو ذلك حقا !.. الجسر !.. كان ذاهبا ليقابل رجلين عند الجسر . هذا هو الاتفاق الذى ارتبطوا به ليلة أمس . هكذا بدا لهم الأمر ليلة أمس ، ولكنه لم يعد الآن موقنا من صواب اللقاء .. ومن المحتمل أنهما شعرا بمثل تردده هذا . لكم يكون من الطريف أن يظل الجسر فى انتظارهم ، دون أن يظهر عنده واحد منهم !

ولكنك وعدت يا ((ستيفن هارتلاند)) !.. وعدت ، ووعد الحر دين عليه !

ولكن هذا الوعد صدر فى ليلة أمس ، التى كانت حافله بالمشاعر الجياشة .. وكانت الظروف غير عادية .. ثلاثة أفراد كانوا يعتزمون الانتحار ، فأنقذ كل منهم الآخر من الموت !

لعله يشكر لهذا الانقاذ حدوثه يوما ما .. بل ان الرغبة فى القضاء على نفسه قد زالت فعلا . وقد أصبح الآن قادرا على تدبير الأمور وتحليلها .. **لقد حومت ((رودا)) بعيدا عنه ، ولعل فى وسعه أن يستبقيها فى أساره بعض الوقت . ولكن لا خير فى ذلك ، فهى قد أصبحت غريبة فى بيته ، وأحكم ما يفعله هو أن يفتح لها الباب ، ويدعها تنطلق .. أن يسمع طرقات كعبيها على درجات السلم لآخر مرة !**

أما الحل الآخر فكان أكثر صعوبة .. كان عليه أن

يحبس نفسه فى حجرة ، وينصرف ـ فى هدوء ـ الى ملء صفحة من الورق بالأرقام ، ليتأكد من مقدار ما بقى له من مال .. كان عليه أن ينفق دون مبالاة لفترة من الوقت ، كمحاولة أخيرة لاستبقاء « رودا » . لكم أنذر نفسه ـ مرة بعد الأخرى ـ وفى بطنه شعور قارس البرودة يلسع أحشاءه بأنه قد أوشك على الافلاس ، وأن من الخير أن يقبض يده !

● ●

● وكان من الغريب أن يستعرض كل هذه الأفكار بهدوء ، دون ما انفعال ، فى حين أن كل هموم الجحيم كانت تطارده فى الليلة الماضية .. لقد ذهب الى الجسر ـ اذ ذاك ـ وهو مقتنع تماما بأنه لم يعد ثمة حل للموقف سوى أن يضع لحياته نهاية ..

وكان ثمة شرطى فى أحد الأركان ، فأوشك « ستيفن هارتلاند » أن ينكص على عقبيه مدبرا .. وفكر فى نفسه : « لو أن مسلكى أثار ريب الشرطى ، فانه سيراقبنى ، ولن تسنح لى الفرصة » .. **ولكنه ـ وقد بلغ النهر ـ كان كارها لارجاء المسألة . فان للبدن ارادته الخاصة ، التى لا تستند الى منطق ، وقد يشرع ـ فى أية لحظة ـ فى تأكيد حقه فى الحياة .. وهو ـ صاحب البدن ـ قد أصبح يكره الحياة !**

وتحرك « ستيفن هارتلاند » ـ فوق الجسر ـ فى تؤدة .. قد يحسن أن يدخن للمرة الأخيرة ، وفى وسع المرء أن يدخن غليونه ، وهو متكىء بذراعيه على السياج الحجرى للجسر ، دون اثارة أية شبهات . فأفكار الناس تنطلق عادة على خطوط العرف والعادة ، والمدخن مفكر ، والمفكر لا يلقى بنفسه فى النهر !.. كان عليه أن يفعل شيئا ما ـ على أية حال ـ لأنه لم يكن وحيدا فوق الجسر ، فعلى بضع ياردات منه ، كان ثمة بصيص سيجارة .. وفى الجانب المقابل ـ من

الجسر ـ كان ثمة شيء مقيم ، له وجود مادى لا يبرر الظن بأنه ظل أو شبح !

وتطلع ببصر نافذ ، الى حيث كان بصيص السيجارة باقيا .. يا للعنة ! لا بد أن ذلك الشخص أشعل سيجارة جديدة !.. ماذا وراء وجوده هناك ؟ أهو فى انتظار فتاة ؟.. وأخذ ((ستيفن هارتلاند)) يزداد شعورا ببرودة الطقس ، فقد كان الجسر مكانا مكشوفا .

وغمغم لنفسه : ((لا داعى لأن أسلم نفسى للبرودة قبل الأوان !)) .. وتحرك قليلا ـ فوق الجسر ـ ليستحث دورة الدم فى جسمه من ناحية ، وليرضى فضوله من ناحية أخرى . وتوهج التبغ فى غليونه ، فذكا بصيص السيجارة ردا عليه . واضطره دافع خفى الى أن يتوقف . وانفثأ نفاد الصبر فى كلمات انطلقت ، قبل أن يحاول أن يمسك لسانه ويلزم الحذر :

ـ هل تعتزم البقاء هنا طيلة الليل ؟

ـ ... تعتزم البقاء هنا طيلة الليل ؟

ورانت لحظة صمت مشدوه . عقلان امليا على لسانين تساؤلا واحدا ، فى وقت واحد !.. وكان ((ستيفن هارتلاند)) الأسبق الى نفض الصمت المشدوه عن ذهنه . ولعل ضحكته كانت متوترة ، ولكن كلماته انسابت بيسر :

ـ أترانا هنا لغرض واحد يا صاحبى ؟

وانساب من الآخر صوت واضح ، فى تثاقل توحيه المرارة المدمرة عادة :

ـ يبدو أن الأمر كذلك ...

قال ستيفن هارتلاند : ((موعد مع الجسر !.. لكم قرأت بأن الأمر ليس بالقسوة التى تتصورها ، بعد التعرض لصدمة البرودة الأولى ، عندما تمس الماء)) .

ـ أمن المعقول أن يكون أقسى من أن يفتح المرء عينيه على يوم جديد .. مئات الأيام ؟

ـ انك مثلى يا صاحبى ، لا تصدر عن وحى اللحظة ، بل انك فكرت فى الأمر .. فلست تندفع متهورا .

ـ لقد ذروت رماد دنياى فى الهواء ...

ـ لندخن معا .. نفثات أخيرة ، فى جو من الزمالة ، قبل أن نمضى !

وانبعث الصوت فى شىء من السرعة : « فكرة طيبة .. أعتقد أن هذا يخفف عنا الأمر .. يخفف عنا الشعور بأن الوحشة تمد قبضتها لتحتويك ! »

● ●

● **وواصلا** الحديث فى الموضوع ، وهما يقفان خارج اطارى حياتيهما لأول مرة فى سياق هاتين الحياتين .. فشاهدا نفسيهما وكأنهما ممثلان على خشبة مسرح !

وقال « ستيفن هارتلاند » لنفسه : **« ولكننى لم أعد ممرورا بنفس الدرجة التى كنت عليها ليلة أمس .. لعل مرد ذلك الى أننى قد شخت ، ولم أعد شابا له فى الحياة ما يدفعه للتشبث بها ... »**

لقد قال الرجل ، بعد أن تبادلا قصتيهما : « هذا هو الموقف .. عودة بعد الحرب ، وتخلص من الزى العسكرى ، ولكن .. ماذا ؟ .. بيت تلاشى ، وعمل زال . اننى واحد من أصحاب المهن الحرة المنبوذين ! .. ثم المرض .. ونفاد النقود ! .. ومن يحفل بالمرء ؟ .. انه يصبح هدف الاهانات الرخيصة من السياسيين الذين استقروا فى مناصب مأمونة . لقد ضقت بكل شىء . **بوسعهم أن ينتشلوا جثتى من النهر ، ويهدهد المجتمع ضميره بأن يعلن ان توازن عقلى قد اختل ! »**

قال ستيفن هارتلاند ، بواعز خفى : « انك شاب ، وبوسعك أن تبدأ من جديد » .

ـ وأنت لديك من الخبرة ما يساعدك على بداية جديدة !

وتحول الحـوار الى قذائف يرمى بها كل منهمـا الآخر ليثنيه عن عزمه . وأخيرا ، رأى « سـتيفن هارتـلاند » ألا سـبيل لترجيح رأيه على رأى الآخـر ، الا بأن يضحى برغبته ، فقال :

ـ اسمع .. هناك غد دائما . فهل تحذو حذوى ، اذا أنا أبديت استعدادا لأن أفسح للصباح التـالى فرصة ، يثبت فيها ان كان من ورائه خير أو شر ؟

ثم ابتسم فى الظلام ، وأردف : « .. وعلى أية حال ، فان الجسر لن يغيب عن مكانه ! »

ـ الصباح ؟!.. أترانى لم أعان قسوة الشعور بالحرمان عندما أجد صندوق البريد خاويا ، يوما بعد يوم ؟

ـ تحملها مرة أخرى .. وسأفعل مثلك ؟

وتغيرت لهجة الصوت ، وهو يقول : « وهل نلتقى مساء الغد ؟ .. هنا ، حوالى هذا الوقت ؟ »

قال ستيفن هارتلاند : **« اتفقنا ! »**

وتحرك فى الظلام شىء ما .. وداخل « ستيفن هارتلاند » شعور غامض بأن شخصا ما عبر الجسر من الجانب الآخر ، ولكنه لم يحاول تبينه ، لفرط استغراقه فى الحديث ..

وانبعث ـ بالقرب منهمـا ـ صوت مبحـوح ، لاهث : « بالله عليكما ، ألن تنصرفا من هنا ؟.. انني أريد أن أخلو الى نفسى فوق الجسر للحظات قلائل ! »

● ●

● **هكذا** كان الجسر فى الليلة الماضية ..

انك على موعد هناك الليـلة يا « ستيفن هارتلاند » !.. موعد مع الرجلين .. ستلتقون ثلاثتكم فوق الجسر !

كان هذا اللقاء يبدو معقـولا ، اذ ذاك ، أما الآن ، فالأمر يبدو مختلفا . يبدو خياليا بعض الشىء ، أحمق نوعا ما !..

وشعر « ستيفن هارتلاند » بارتياب فى أن يحضر الرجلان . أو .. قد يأتى الرجل الضئيل الجسم ، ذو الصوت المبحوح .. انه قادم بلا مراء ، بجسمه واسمه .. كان اسمه « ألبيرت كزينز » . يا للمسكين ! لن يكون للتأخر يوما واحدا أثر عليه ، فان النهاية محتومة ، لا مناص منها ، فقد قال :

ـ انهم لا يستطيعون اجراء جراحة لى .. أحسبهم بذلوا كل ما فى طوقهم . انها من تلك الحالات التى لا حيلة فيها . قد أكون مخطئا فيما اعتزمت ، ولكنى أوثر أن أسير لنهايتى على قدمى ، بدلا من أن أضمر وأذبل وأصبح جلدا وعظاما ، فى انتظارها .. لقد شهدت وفاة مريض بالسرطان . اننى أعرف أن لدى فرصة لأن أعيش بضعة أشهر ، ولكنى أفضل أن أختم حياتى بسرعة ، وأنا بعد على شىء من المقدرة ...



يا للمسكين !.. أجل ، لابد أن « ألبرت كزينز » قادم . لقد تقبل الاقتراح ، من قبيل العطف فحسب : « الأمر سيان بالنسبة لى ، ولكن الارجاء للغد قد يساعدكما ، وسوف .. أجل ، سأقابلكما مساء غد ! »

لعله حدس انه سيجد الجسر خاليا .. وعندما تكون موقنا من أن الفجر الجديد لن يأتى لك بجديد ، فهذا لا يعنى أنه سيطلع على غيرك خالى الوفاض !

هل من العطف والرحمة أن يصافح الرجل الضئيل الجسم ، قبل أن يهوى فى الفضاء ؟ .. ربما ! ولكن المرء — ولا ريب — يشعر بشىء من الحماقة اذ يقول : « لا يبدو الأمر عاجل الضرورة ، كما كان يبدو بالأمس . أشعر بأن تغيرا طرأ على الموقف ، ولكن التوتر خف .. لعل بوسعى أن أمضى فى التجربة ، أنا الآخر ! »

وعرج فى نهاية الشارع ، فلاح له النادى ، وفى مدخله أضواء ترحب بالوافدين . سيكون جو النادى مريحا ، فماذا يمنع من الدخول ؟

ولكن « البرت كزينز » ينتظر هناك !

ليس من الشهامة تركه يذهب الى الجسر وحيدا . ومن الأفضل توديعه بكلمة رقيقة . ولكن ذلك الشاب المغرور النفس قد يكون هناك !.. **عجبا ، لقد أصبحت مشكلتنا سواه هذا اللتان تشغلان باله ... !**

ترى هل يكون ذلك الشرطى اللطيف هناك ؟.. لكم سيكون تبادل التحيات — من جديد — أمرا غريبا .. انها دراسة فى المتناقضات !.. ان الحياة — حتى فى وضعها الراهن — تلد مواقف طريفة حقا !

● ●

● **وكان** الجسر فى مكانه ، ولكن ما من شرطى **هناك** ..

وثمة مركبات قليلة تجتاز الجسر ، فقد كان الوقت مبكرا ـ بعض الشيء ـ عن موعد الأمس .. وهنـــاك النهر ، بمائه البارد ، أشبه بزيت أسود تتخلله ديدان ملتوية من الضوء .. انها انعكاسات المصابيح !

وها هنا مكان اللقـــاء .. بعد أقواس دعامات الجسر بقليل ..

ـ أهلا ! اذن فقد جئت ؟! .. يا للعجب ، كنت أظنك لن تأتى !

ـ أصارحك بأننى أوشكت ألا أجىء ، ولكنى شـــعرت بخزى لا أدرى مأتاه .. انه خوف وليد المدنية .. الخوف من الظهـور بمظهـر الأحمق السخيف .. ومن ثم كدت أدخل النادى أثناء مجيئى .. أصدقك القول ، اننى لم أتوقع أن ألقاك .. انما كنت أفكر فى ذلك البائس « ألبرت كزينز » !

ـ كذلك كان الأمر معى . كنت أتسـلى بتأمل النهر فى انتظار أن يأتى . هل تلمح أضواء زورق الشرطة ، فى منتصف النهر ؟.. ان الزورق يتحرك ببطء شديد ، ولن يدهشنى أن تكون ثمة عملية انتشال . ما أغرب الشعور الذى يخامرك اذ تفكر فى أنه كان من المحتمـــل أن تكون جثتـك هى التى ينتشلون ..!

ـ فكرة لا تبعث على السرور . ألا قل لى .. كيف كان حظك اليوم ؟

ـ لقد مر اليوم ، كغيره من الأيام . الأمانة تحملنى على أن أقول اننى كنت فى شبه غيبوبة .. وجـوم كئيب خامل .. ما أرانى الآن مسـتعدا للقفز الى المـــاء ، فالأمر لا يستحق المجهود الذى يتطلبه .. واذا كانت الظروف لا تبـدو قد تغيرت ، فانى أنا تغيرت .. لقد جرفنى تيـــار اللامبـــالاة بعيـــدا ...

ـ تكاد حالى تشبه حالك . لو انك سـألتنى عما كنت أفعل فى يومى ، لوجدت عناء فى أن أوافيك بصورة واضحة . ألم أخبرك بأن مخى يركن الى النعاس أحيانا . هكذا كانت حاله اليوم . **على أن التوتر تلاشى ، حتى وأنا أعلم أن زوجتى خرجت الليلة مع عشيقها ، فالأمر لم يعد .. أجل ، لم يعد يثير اهتمامى .. عجبا ، ها هو صديقنا « ألبرت كزينز » !**

ـ مساء الخير !.. اذن فقد اجتمعنـا مرة أخرى ؟.. كأسرة سعيدة !

ـ ربما كأسرة ، ولكنى لا أجزم بأنها « سعيدة » ، فالبرد هنا قارس ، ولو اننى فى النادى لكنت أسعد حالا ، فيما أرى .. ولكن ، حدثنا أولا عن نفسك .. ماذا فعلت بعد انصرافك ليلة الأمس ؟

ـ ماذا فعلت ؟.. ياله من سؤال !.. فعلت ما فعلتماه . تريثت برهة ، ثم عدت الى هنا لأقفز فى النهر !

واقبلت على الجسر سيارة ، مزقت أضواؤها الأمامية الظلام ، فاذا الجسر جامد ، عار ، خال ..

اذن فقد كان الذى واتاهما فى الموعد ، هو شـبح « كزينز » ، وليس « كزينز » نفسه ..

وتبخرت من رأسيهما كل رغبة فى الموت ، ولم تبق سوى الرغبة فى الفرار .. من الشبح !

....

قصة من إيطاليا

شرخ فى عقل "دون لولو"!

للكاتب الإيطالى الخالد
لويجى بيراندللو



ترجمة : م . ب

أسلوب واقعي وفلسفة غريبة !

يعتبر « لويجي بيرانديللو » من أحسن القصصين المعاصرين ، لا فى ايطاليا وحدها ، بل فى العـــالم بأسره .. وقد فاز بجائزة « نوبل » للأدب . وقد اتسمت قصصه القصيرة ـ التى كتب معظمها فى الفترة بين سنتى ١٨٩٤ واندلاع الحرب العالمية الاولى ـ بغرابة فلسفتها ، مع واقعية أحداثها ، ولعل القصة التى نقدمها لك على الصفحات التالية ، تشهد بذلك .

على أن « بيرانديللو » ـ الذى ولد فى (صقلية) سنة ١٨٦٧ ، ومات سنة ١٩٣٦ ـ يدين بالقدر الاكبر من شهرته ، الى مسرحياته ، ومن ثم فهو لم يعرف ككاتب قصة قصيرة ، بقدر ما عرف ككاتب مسرحى .. ولعل أشهر مسرحياته المعروفة للقارىء العربى ، هى : « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » .. واتسمت مسرحياته بعين ما اتسمت به قصصه : الواقعية ، مع غرابة الفلسفة ، حتى ليسائل المشاهد ـ أو القارىء ـ نفسه : « ماذا يقصد المؤلف ؟ » .. ويحمله هذا على التفكير ، وعلى أن يستخلص لنفسه الغاية المقصودة من العمل الادبى .

● **كان** محصول الزيتون وفيرا ، فى ذلك العـــام ، حتى انه أثقل الأشجار .. وساعد على اكتمال جودته ما شاع فى الجو من ضباب ، طيلة الفصل ، مما جعل « لولو زيرافا » يعلق آمالا جســاما على مزرعته فى (بريموسول) فلم يكتف بالأوانى والقـدور الفخـارية القديمة ـ التى كان يودعها

مخزن الخمور - لاستيعاب كل الزيت الذى توقع أن يدره عليه محصوله ، وأوصى بصنع جرة أخرى كبيرة ، فى (سانت ستيفانو دى كامسترا) ، حيث اعتاد أن يوصى بقدوره وجراره المصقولة .

وكانت الجرة الجديدة هائلة ، تبلغ قامة الانسان طولا ، ولها بطن كبيرة الانتفاخ ، مما يبوئها مكانة الأم بين الجرار الخمس التى كان يمتلكها .

وقد يكون من الضرورى أن أذكر انه - الى جانب الخلاف الذى نشب بين « دون لولو » وصانع القدور - كان من العسير أن تجد شخصا سلم يوما من الشجار مع « دون لولو » لأتفه الأسباب .. **اذ كان يكفى أن يسقط حجر عفوا من حائط مجاور ، أو أن يطير شىء من القش نحو مزرعته ، ليصيح بخدمه آمرا أن يسرعوا فيسرجوا بغلته ، ليطير الى المدينة ، فيرفع الأمر الى السلطان !.. حتى لقد أوشك على الافلاس لفرط ما كان ينفق على المحامين والقضايا .. ودائما ما كان ينتهى الأمر بأن يخسر الدعوى ، ويدفع نفقات الاجراءات القضائية عن الجانبين !**

ويقول الناس ان محامى « دون لولو » قد سئم رؤيته مرتين أو ثلاثا فى كل أسبوع .. كما يقال ان « دون لولو » حاول أن يختصر سجل قضاياه ، فجمعها فى دفتر فى حجم « كتاب الصلوات » ، ضمنه ملخصا لكل قضية ، وموجزا لكل مشكلة مرت به ، ليسترشد بذلك فى الحكم على مدى صواب أو خطأ موقفه من أى نزاع ، قبل أن يسارع الى رفع الأمر للقضاء !

وقد اعتاد القوم - اذا ما اختلفوا معه فى أمر - أن يستثيروه ، فيصيحوا مقلدين اياه : « أسرجوا البغلة ! » .. ولكنهم - بعد أن أعد هذا الدفتر - أصبحوا يقولون له :

« اذهب واستشر دفتر أحــوالك ! » .. فكان يرد عليهم متوعدا : « سأفعل ، وسأخرب بيوتكم ! »

● ●

● **ووصلت** الجرة الفخارية الجديدة ، التى دفع فيها « دون لولو » أربعة « فلورينات » ، فوضعها الى جوار مخزن العنب . ريثما يعد لها مكانا مناسبا ..

وكانت جرة لم تر البلدة أبدع منها ، ولذلك ضاقت صدور الكثيرين لرؤيتها فى ذلك المكان . الذى كانت رائحة عصير العنب والرطوبة العطنة تثقل جوه .

وكان على « دون لولو » ـ وقد بدأ جمع العنب قبل يومين ـ أن يبقى الى جوار عمال الحصاد يراقبهم ، ويراقب ـ كذلك ـ الرجال الذين أخذوا يجيئون بالبغال محملة بالسماد ، ليكدسوه الى جوار التل ، حيث كان يمتلك حقلا اعتزم أن يزرع به « فاصوليا » للموسم القادم . **وكان يشعر بأن هذا العمل أكبر من أن يقوم به رجل واحد ، اذ كان مضطرا الى أن يروح ويجىء ليراقب الفريقين .. وكثيرا ما نازعته نفسه الى أن يقتل شخصا أو اثنين ، لمجرد أن حبة من العنب وقعت أثناء النقل .. وكان يحاسب الحاصدين وكأنما أحصى حبات العنب قبل جمعها !..** ومن حين الى آخر ، كان ينصرف عن جامعى العنب الى أصحاب البغول ، مهددا اياهم بالويل والثبور ، اذا ما اكتشف أن أحدهم حمل مقدارا أقل مما ينبغى !

وكان يقى رأسه بطاقية بيضاء ، وقد شمر كميه عن ساعديه ، وفتح صدر قميصه ، وراح يجرى هنا وهناك ، وحبات العرق تجلل وجهه الأحمر .. وقد أومضت عيناه بشراسة ، وأخذت يده تحك ـ بحركة غاضبة ـ ذقنه التى

نبت شعرها .. وما كان أسرع الشعر الى النمو غزيرا بمجرد أن يرفع الموسى عن فوديه !

● ●

● **وكانت** قد انقضت ثلاثة أيام كاملة من العمل ، عندما ذهب ثلاثة من عمال المزرعة – ذوى الوجوه القذرة – الى مخزن العنب ، ليودعوه أحمالهم من المحصول .. ولكنهم لم يكادوا يدخلونه ، حتى سمروا فى أماكنهم مشدوهين ، **اذ رأوا الجرة الجديدة مكسورة الى نصفين ، وكأنما شقتها موسى حادة الى شطرين !**

– اواه ! يا الهى !.. انظرا !

– يا للسماء !.. كيف حدث هذا ؟

– ما الذى سيفعله « دون لولو » عند سماعه بالأمر ؟

واقترح اول الثلاثة – وكان أكثر من زميليه خوفا – أن يغلقوا باب المخزن ، ويبادروا بالانصراف فى هدوء ، تاركين أحمالهم الى جوار الجدار ، فى الخارج . بيد أن الثانى عارضه ساخطا :

– يا لغبائك !.. لن يغتر « دون لولو » بهذا ، وقد يتهمنا بأننا الذين كسرنا الجرة .. كلا ، لنبق جميعا هنا !

وتقدم الى الباب ، فصفق بيديه مناديا : « دون لولو !.. دن لولووو ..! »

وأقبل الرجل ، فما أن رأى القدر مكسورة ، حتى صب جام سخطه على المزارعين الثلاثة ، وأمسك برقبة أحدهم ، فدفعه الى الجدار ، وصاح :

– ستدفع ثمن فعلتك ، وحق العذراء !

وانقض زميلا العامل على « دون لولو » بحركة ضاربة ، وأبعداه عن صاحبهما .. واذ ذاك تحولت ثورة « دون لولو » لتنصب على نفسه ، فأخذ يدق الأرض بقدميه ،

وطوح بقبعته ، وانهال لطما على وجهـه ، باكيا خسارته ، وكأنما فقد قريبا عزيزا..

ــ الجرة الجـديدة !.. لقد دفعت من أجلهـا أربعة فلورينات !

من عساه يكون قد كسرها ؟.. أيحتمل أن تنكسر من تلقاء ذاتها ، دون فاعل ما ؟.. لابد أن شخصا كسرها .. ولابد أنه كسرها بدافع الحقد ، أو لعله الحسد !.. ولكن ، متى ؟.. وكيف ؟.. لم يكن ثمة ما ينم عن عنف .. أفيحتمل أن تكون قـد وصلت من المصنـع مكسورة ؟.. كلا ، لقد كانت سليمة ، وكان لها رنين كالجرس ، عندما أحضروها !

● ●

● **واذ** رأى العمال أن سورة غضبه قد هدأت أخيرا ، شرعوا ينصحونه بألا يقسو على نفسه بهذا الشكل ، ما دام من الممكن اصلاح الجرة ، لا سيما أن الكسر لم يكن فادحا .. كان خطا واحدا ، فى وسع أى مجبر ماهر أن يجبره باللحام ، فتعود الجرة كالجديدة تماما !

وكان العم « ديما ليساس » أول من خطر ببالهم ، فهو قـد اخترع نوعا من « أسمنت اللحـام » حرص على تكتم تركيبه ، وأثبت أنه كان لحاما فريدا ، اذا جبر به شيئا فلن تستطيع له كسرا ، ولو طرقته بمطرقة !.. لذلك اقترحوا على « دون لولو » استدعاءه ، وتعهدوا بأن يحضر مع اشراق النهار التالى ، اذا قبل اقتراحهم !

ولم يعرهم « دون لولو » ــ فى البداية ــ سمعا ، اذ بدا له ألا أمل يرتجى ، وما من شىء يصلح الكسر .. **بيد أنه ما لبث أن مال الى الاقتنـاع ، فلم يسفر الصبح حتى كان العم « ليساس » قد وصل الى « بريموسول » ، وعلى ظهره** ربطة ضمت كل معداته .. وكان شيخا أشوه الوجه ، دقيق

الأطراف ، كشجرة زيتون هرمة .. لا تخرج الكلمة من فمه الا بعناء ، وكأنك تنتزعها منه انتزاعا !

وكانت ظلالا من الأسى ترين على أساريره ، لعل منشأها انه لم يكن يلقى من الناس تقديرا لموهبته كمخترع !.. ولم يكن العم « ديما ليسساس » قد سجل اختراعه بعد ، فقد آثر الابطاء حتى تثير نتائجه الباهرة ضجيجا يكفل له الشهرة والرواج .. وهذا ما دعـــاه الى أن يكتم سره ، فلم يطلع عليه أحدا .

● ●

● **ألقى** « دون لولو » على العم « ديما ليسساس » نظرة فاحصة ، شملته من رأسه الى قدميه لعدة دقائق ، ثم قال فى ارتياب :

ـ أرنى هذا اللحام الذى اخترعت !

فهز العم « ليساس » رأسه رافضا ، وقال : « لسوف ترى نتائجه ! »

ـ ولكن .. هل سيكون متينا ؟

ووضع الرجل ربطته على الأرض ، فأخرج منها لفافة حمراء ، عبـارة عن منديل أحمر كبير ، التف لفات عديدة حول شى ما . وبدأ يفك اللفات فى حرص ، والجميع حوله يرقبونه بانتباه شـديد . ثم انفجروا ضاحكين حين تبينوا أن المنديل لم يكن يضم سوى نظارة كسرت ذراعاها ، فحل محلهما رباطان من خيط .. ولم يحفـل بهم العم « ديما ليسساس » ، بل ثبت النظارة فوق أنفه بحرص ، ثم أخـذ يفحص الجـرة بعناية وأناة ، وما لبث أن قال : **« سيكون متينا ! »**

قال دون لولو : « ولكنى لا أثق باللحام وحده .. لا بد من استعمال مشابك حديدية ! »

وكان جواب الرجل : « **اذن .. فأنا منصرف !** »

وأعاد لف نظارته فى المنديل ، ورفع الربطة الى كتفه ، ولكن « دون لولو » أمسك بذراعه ، وهو يصيح :

ـ منصرف ؟.. الى أين ؟.. ان أخلاقك ليست خيرا من أخلاق الخنزير !.. يا لك من صعلوك تتعاظم !.. الذى يحنقك أيها الغبى ؟.. اننى سأضع فى الجرة زيتا ، أفلا تعلم أن الزيت قد يرشح خلال الكسر ، اذا أنت استخدمت « الأسمنت » وحده ؟.. اننى أريد مشابك حديدية مع الأسمنت ، ومن حقى أن أقرر ما أريد !

وأغمض العم « ديما ليساس » عينيه ، وزم شفتيه .. هكذا شأن الناس جميعا ، لا يريدون أن يتركوه يعمل وفق ما يرأه أصلح ، على هدى فنه ، ليثبت لهم ميزات اللحام الذى اخترعه ..

وقال أخيرا : « اذا لم يعد سليما تماما ، من جديد .. »

ولكن « دون لولو » قاطعه قائلا : « لا أريد أن أسمع كلمة واحدة .. افعل ما أريد ، وسأدفع لك لقاء الأسمنت والمشابك ، كم تريد ؟

ـ اذا أنا استخدمت « الأسمنت » وحده ..

ـ يا الهى !.. يا لك من عنيد !.. ماذا قلت لك ؟ قلت أريد مشابك حديدية ، وسأجزيك بعد اتمام العمل ، فان وقتى لا يتسع لأن أبدده معك !

● ●

● **وانصرف** الى مراقبة رجاله ، بينما شرع العم « ديما ليساس » فى العمل ، وهو يشعر بأن كرامته قد جرحت ، فأخذ يصب سخطه مع كل ثقب كان يحفره فى جانبى الكسر من الناحيتين ـ للمشابك ..

واختلطت ضوضاء آلته الثاقبة بصيحات الخنازير فى حظيرة قريبة .. وما أن أتم حفر الثقوب ، حتى ألقى بالآلة الثاقبة بضيق ، ورفع شطرى الكسر ليسوى أحدهما بالآخر ، ويتأكد من تقابل الثقوب . ثم تناول مقصا معدنيا ، وراح يقطع أجزاء صغيرة من سلك حديدى .. ثم دعا أحد العمال – الذين كانوا يجمعون العنب – وسأله أن يساعده .

وبحركة غاضبة فتح صندوق « الاسمنت » ، ورفعه الى السماء وكأنه يشهدها على انكار البشر لقيمته .. وأخذ يسبغ من المادة على طول جانبى الشق .. ثم حمل قطع السلك و « كماشة » ، ودخل فى أحد شطرى القدر المكسورة ، وطلب الى العامل أن يطبق عليه الشطر الآخر . وقبل أن يسلك القطع الحديدية فى الثقوب ، قال من داخل القدرة .

– أحكم أطباق الشطرين ليلتصقا بالأسمنت .. هكذا ! .. أرأيت كيف التصق الشطران !.. لعنة الله على من يأبى أن يصدقنى من الناس !.. اطرق جانبى القدر ! أترى كيف ترن كالجرس ، برغم وجودى بداخلها ؟.. اذهب وأخبر مخدومك بذلك !

فقال الرجل ، وهو يطلق زفرة : « للسادة أن يصدروا الأوامر ، وما على الصغار الا أن يطيعوا .. ثبت الأسلاك فى الثقوب ! »

وشرع العم « ديما » يدس الأسلاك فى الثقوب المتقابلة ، ويحكم ربطها من الداخل .. واستغرقت العملية ساعة ، أغرقه العرق خلالها ، وهو طيلة الوقت لا يكف عن التذمر والشكوى ، والعامل يحاول أن يسرى عنه .. حتى اذا انتهى العمل ، قال العم ديما : « والآن ، ساعدنى على الخروج ! »

ولكن .. بقدر ما كان بطن الجرة واسعة ، اذا بعنقها ضيق ! وعبثا حاول العم « ديما » أن يفلت من العنق ، فقد عجز عن الخـروج برغم ما راح يبذل من جهـود . ووقف العامل مستغرقا فى الضحك ، بدلا من أن يحاول مساعدته !

● ●

● **وهكذا** أضحى الشـيخ « ديما » المسكين ، سجين الجـرة التى أصلحها . ولم تعد ثمة وسـيلة لاخراجه الا بكسرها ثانية .. ولكن الكسر – فى هذه المرة – قد يكون كبيرا !

وسمع « دون لولو » الضحك والصياح ، فأقبل مهرولا ، ليرى العـم « ديما » داخل الجـرة ، مهتاجا كقط ثائر ، وهو يصيح :

– أخرجنى من هنا ، بحق السماء !.. أخرجونى !.. أسرعوا !.. ساعدونى !

وتراجع « دون لولو » مشدوها ، لا يكاد يصدق شيئا .. وأخذ يردد : « ماذا ؟.. داخل الجرة ؟.. هل حبس نفسه بالداخل ؟ »

وتقدم من الجرة – أخيرا – وصاح بالعم ديما :

– أساعدك ؟!.. أية مساعدة تحسبنى قادرا على أن أقدمها لك ؟.. ما معنى هذا أيها العجـوز ، المخرف ؟.. لماذا لم تتفقد حجم الرقبة منذ البداية ؟.. تعال ، حاول ! أخرج ذراعك !.. نعم ، هكذا !.. والآن ، أخرج رأسك!.. لا ، لا ، برفق !.. أدخل ثانيـة !.. انتظر ! ليس بهـذه الطريقة !.. ارجل الى الداخل ! كيف تضع نفسك فى هذا الوضع ؟.. ماذا أنا فاعل بقدرى الآن ؟

وصرخ فى الواقفين حوله : « هدوءا !.. هدوءا ! » .. كأنما كانوا هم مصدر الجلبة ، وليس هو !

واستطرد يصيح : « ان رأسى يدور !.. هدوءا ، فهذه مشكلة جديدة ، لا عهد لى بها .. أسرجوا البغلة ! »

ودق على الجرة بيده ، فاذا بها ترن كالجرس !.. وصاح راضيا : « حسن !.. انك أعدتها جديدة !.. ولكن ، انتظر لحظة ! »

وضغط جبينه بأصابعه ، وأضاف ، « يا للحيرة !.. أى الطرق أتبع !.. ليست هذه جرة ، وانما هى لعنة من الشيطان !.. ألزم الهدوء ! »

وأسرع يثبت الجرة ، اذ كانت حركات العم « ديما » لا تهزها ، وهو فى هياج كوحش فى مصيدة !

ـ انها مشكلة جديدة ، يجب أن استطلع رأى المحامى فيها !.. أين ذلك البغل ؟.. أسرعوا فأسرجوا البغل !.. سأنطلق بسرعة ، ثم أعود ، فاصبر يا رجل !.. اهدأ حتى أعود ، فلابد من أن أتبين حقوقى القانونية ، وأن أعرف الصواب .. اليك ، سأدفع لك أجر عملك ، أجر يوم كامل اليك خمس ليرات ، فهل يكفيك هذا ؟

وصاح العم ديما : « كلا ، لا أريد شيئا .. سوى الخروج ! »

ـ ستخرج عندما أعود .. وحتى ذلك الوقت ، اليك أجرك .. خمس ليرات !

وألقى بالنقود فى جوف الجرة ، ثم تساءل : « هل تناولت غداءك ؟.. احضروا له خبزا وشيئا ما ، حالا !.. ماذا ؟ لا تريد طعاما ؟.. لا بأس ، ألق به الى الكلاب ان شئت ، ولكنى أفعل ما يقضى به الواجب ، فأقدمه لك ! »

● ●

● **وامتطى « دون لولو » بغلته ، وانطلق نحو المدينة**

.. وراح طيلة الطريق يحدث نفسه ، ويأتى باشارات جعلت كل من رآه يظن انه انما كان ذاهبا ليحل نزيلا على مستشفى الأمراض العقلية !

وساعده الحظ فلم يطل انتظاره ، قبل أن يدخل مكتب المحامى .. ولكنه اضطر للانتظار طويلا ، حتى يفرغ المحامى من ضحكه ، بعد أن أصغى الى القصة .. وأحنقه سلوك المحامى ، فقال فى انفعال :

ـ عفوا ، لست أرى ما يستدعى الضحك .. الأمر بسيط بالنسبة اليك ، لأنك لا تعانى شيئا .. فلست أنت صاحب الجرة !

ومن جديد ، عاد المحامى يضحك .. ما لبث أن سأله أن يروى الحكاية ـ مرة أخرى ـ بتفصيل واسهاب .. ثم عاد يضحك ، وهو يقول :

ـ فى جوف الجرة ؟! .. اذن ، حبس نفسه بالداخل ؟ .. وماذا يريد « دون لولو » أن يفعل ؟ .. أتريد أن تبقه .. تبقيه داخل القدر ؟ .. ها ! ها ! ها ! .. تبقيه بداخلها ، لكى لا تكسرها !؟

وصاح دون لولو : « ولماذا أكسرها ؟ .. ماذا يدعونى لأن أبدد نقود ؟ .. ولماذا يضحك الناس منى اذ أحرص على حقوقى ؟ »

وقال المحامى أخيرا : **« مهلا .. ألا تدرى ماذا يسمى ذلك قانونا ؟ .. انه يسمى : السجن خطأ ! »**

ـ سجن ؟ .. ليكن ! ومن الذى سجنه ؟ .. هو الذى سجن نفسه ، فلماذا أتحمل خطأه ؟

وشرح له المحامى أن للمشكلة شقين . أولا : على « دون لولو » أن يطلق سراح الرجل فورا ، اذا شاء ألا يتهم بسجن الغير خطأ ! .. وثانيا : ان الرجل مسئول عن تعويض

« دون لولو » عن الخسارة التى سببها بعدم مهارته أو بغبائه !

اذ ذاك فقط ، تنهد « دون لولو » بارتياح ، وقال :

ــ آه !.. اذن فعليه أن يدفع لى ثمن القدر !

ــ مهلا !.. انتظر !.. لن يدفع ثمن الجرة وهى جديدة . تذكر هذا !

ــ ولم لا ؟.. أليست هى جديدة ؟

ــ ولكنها كانت مكسورة .. وكان الكسر بالغا ، كذلك !

ــ مكسورة ؟!.. كلا يا سيدى ، انها ليست الآن مكسورة ، بل أصبحت أفضل مما كانت !.. الرجل نفسه يشهد بهذا ، واذا كان لزاما أن أكسرها ثانية ، فسيتعذر اصلاحها فى هذه المرة ، وسأفقدها تماما .

ورأى المحامى أن هذه نقطة جديرة بالاعتبار ، ومن ثم سيكون على الرجل أن يدفع ثمن الجرة بحالها الراهنة .. وقال : **« وعلى هذا ، استدرج الرجل ليقدر بنفسه حال الجرة وقيمتها الراهنة ، قبل كل شىء ! »**

وأعجب « دون لولو » بالفكرة ، فانصرف مهرعا !

● ●

● **واذ** عاد الى مزرعته قبيل الغروب ، وجد الرجال ملتفين حول الجرة ــ التى كان الرجل بداخلها ــ وكلاب الحراسة تشاركهم ضجيجهم . ولم يكن العم « ديما » قد هدأ فحسب ، بل انه راح يضحك من نفسه فى وضعه هذا !

ودفعهم « دون لولو » جانبا ، ونظر داخل الجرة ، وصاح : « كيف حالك ؟ »

فأجابه الرجل : **« بخير !.. حال سعيدة ، فهذا مكان أحسن من بيتى ! »**

ـ لكم يسعدنى أن أسمع هذا !.. ولكنى أود أن أعرفك بأن هذه الجرة كلفتنى أربعة فلورينات وهى جديدة .. كم تظنها تساوى الآن ؟

وسأله العم ديما : **« أتقصد قيمتها .. وأنا بداخلها ؟ »**

وضحك الناس ، فصاح بهم دون لولو : « سكوتا ! » .. ثم عاد يخاطب سجين الجرة :

ـ اما أن يكون لحامك ذا قيمـة ، أو لا يكون كذلك ، وليس هناك احتمال ثالث !.. فاذا كان غير ذى قيمة ، فأنت غشاش !.. أما اذا كان ذا قيمـة ، فمعنى هذا أن الجـرة الآن قيمـة .. فماذا عساها أن تكون ؟.. اننى اسألك أن تقدرها بنفسك !

وفكر العم « ديما » لحظات ، ثم قال :

ـ اليك اجابتى : لو أنك كنت قـد تركتنى أصلحهـا بالأسمنت فقط ، لما وجدتنى فى هذا الوضع ، ولكانت الجرة قد عادت الى قيمتها الحقيقية دون ما شـك .. **أما وقد أصلحت بهـذه السـلاك الحديدية ، التى تطلبت ضرورة أحكامها من الداخل ، فقد أصبحت آثار اللحـام ظاهرة ، وفقدت الجـرة بذلك معظم قيمتها ، فهى الآن لا تسـاوى سوى ثلث قيمتها الأصلية .. لا أكثر ، ولا أقل !**

ـ ثلث قيمتها ؟!.. أى فلورين واحدا ، وثلاثة وثلاثين سنتا ؟

ـ قد تكون أقل ، ولكنها لا يمكن أن تكون أكثر !

ـ ليكن !.. عدنى بأن تدفع لى فلورين وثلاثة وثلاثين سنتا !

وصاح العم « ديما » متسائلا ، وهو لا يفهم شيئا : **ماذا ؟ »**

– سأكسر الجرة لأخرجك منها ، وقد أخبرنى المحامى بأن عليك أن تعوضنى عنها ، ومن ثم فعليك أن تدفع قيمتها وفقا لما قدرته بنفسك : فلورين واحدا وثلاثة وثلاثين سنتا !

وضحك « ديما » قائلا : **أنا أدفع ؟!.. اننى أفضل البقاء فيها حتى أتعفن ! »**

● ●

● **وبعناء** أخرج من جيبه غليونا وأشعله ، وأخذ ينفخ الدخان خارج الجرة .. فوقف « دون لولو » فى مكانه مغيظا ، اذ لم يخطر بباله وبال محاميه أن « ديما » قد يفضل البقاء فى الجرة .. فماذا تراه فاعلا الآن ؟

وأوشك أن يأمر رجاله بأن يسرجوا البغلة ، ولكنه رأى أن الليل قد هبط ، فلم يملك سوى أن يقول : « آه ، آه !.. اذن فأنت تريد الاقامة فى الجرة !.. اننى أشهدكم أيها الرجال على أنه يرفض الخروج ، ليتهرب من الدفع !.. اننى مستعد لأن أكسر الجرة !.. **ما دمت تصر على البقاء ، فسأرفع عليك فى الغد دعوى ، لاقامتك غير القانونية فى الجرة ، وحيلولتك بينى وبين استعمالها كما أشاء ! »**

ونفخ العم « ديما » آخر نفس من الدخان ، وقال فى هدوء :

– كلا .. لست أمنعك اطلاقا !.. أتظننى هنا حبا فى البقاء ؟.. اخرجنى ، وسيسرنى أن أنصرف الى حال سبيلى .. أما أن أدفع نقودا ، فهذا ما لا استسيغه ، ولو فى الحلم !

وأوشك « دون لولو » – فى سورة الغضب – أن يدفع الجرة بقدمه ، ولكنه كبح جماح انفعاله ، وأمسك الجرة

بيـــديه وراح يهزها بعنف ، وهـو يزمجـر ، فصـاح « ديما » من جوف القدر :

ـ أرأيت مدى متانة الاسمنت !

وصاح « دون لولو » مهتاجا :

ـ غلطة من هذه ، أيها اللئيم ؟ .. غلطتك أم غلطتى ؟ .. أأدفع من مالى ثمن خطأك ؟.. مت حيث أنت ، ان شئت ، وسنرى أينا الرابح !

وانصرف مهتاجـا ، ناسيا كل شىء عن الليرات الخمس التى كان قد ألقاها للرجل فى الجرة ، عنـدما انطلق ليزور المحامى .. **وكان أول ما جال بخاطر العم « ديما » ، هو انفاق هذه الليرات فى اللهو مع عمال المزرعة ، الذين كانوا قد قرروا أن يقضوا ليلتهم حول الجرة ..**

ومن ثم ، أرسل العم « ديما » أحد الرجال بالليرات الى حانة قريبة ، ليأتيهم بما يلزم السهرة ..

● ●

● **وكان** القمر ساطعا ، أحال بضوئه الليل نهارا ، مما أدخل على السهرة بهجة . وأقبل الجميع على الشراب ..

ومرت ساعات ، ولم يغمض لدون لولو جفن ، لفـرط غيظه وحنقه ..

وفجـأة ، فطن الى صخب وصياح مزعجين .. وأسرع يطل من شرفة داره ، واذا به يرى الرجـــال وقد شعشعت الخمر فى رؤوسهم ، فراحوا يصيحون مخمورين ، وأمســك بعضهم بأيدى بعض وهم يرقصون حول الجرة ، بينما كان العم « ديما » يغنى ـ بداخلها ـ بأعلى صوته ..

وفى هذه المرة ، أفلتت أعصاب « دون لولو » ، فانطلق يجرى من الدار .. ومن المزرعة .. وقد فقد عقله !

....

الحياة الجنسية عند الإغريق

للباحث الاجتماعى
"هانز ليشت"



النزعات الجنسية وسلوك الانسان فى الحياة

من الحضارة الاغريقية ، اقتبست الحضـارة الغربية المعاصرة فلسفتها ومبادئهـا . ومن ثم فلا بد من أن ندرس حضارة الاغريق القدامى ، اذا شئنا أن نفهم حضارة الغرب . ويرى الباحث المدقق البروفيسور « هانس ليشت » ، انه لدراسة أية حضارة ، لا بد من البحث عن السلوك الجنسى لابنائها ، لان النزعات الجنسية تنعكس على معظم نواحى سلوك الانسان ، لا سيما فى النشاطات الفنيـة والذهنية ..

وعلى الصفحات التالية ، يقدم لك « كتابى » تلخيصا وافيا للحلقة الاخيرة من الدراسة الممتعة والقيمة ، التى قام بها البروفيسور « ليشت » حول « الجنس فى الحضارة الاغريقية » ، والتى قدمنا لك منها أربع حلقات فى الاعداد الاربعة السابقة ..

حب الرجل للمرأة

● كانت الفكرة السائدة عند القدماء ــ وعنـد الاغريق بوجه خاص ــ هى أن الحب ، أو بالأحرى الجزء الجسـدى من الحب ، ليس سوى مرض !.. وهو نوع من الجنون أقل عنفا من الجنون المتعارف عليه !.. واعتبار الحب البـدنى مرضا ، نشأ عن أنه ينجم عن الشهوة . والشهوة اختلال فى التوازن الصحيح بين الجسم والعقل ، وهو التـوازن الذى لابد من توفره ليكون المرء سـليما . فتحت دفع الرغبـة الجنسية ، يفقد العقل سلطانه على الجسد . أما اعتبار الحب البدنى نوعا من « الجنون » ، فمرجعة الى أن المقدرة العقلية

ـ أو قدرة الذهن على الادراك ـ تصاب بتبلد مؤقت خلال المواقعة .

ومن الطريف أن العلم الحديث ـ فى شرحه للظواهر الجنسية ـ يبين أن المواد الكيماوية التى تتكون فى الجسم ـ عند المواقعة ـ تكون ذات أثر مخدر . ومن ثم فانها تسبب خمولا عابرا فى القوى الذهنية .

ولقد اعتنق الفيلسوف الألمانى « هارتمان » ـ ومن قبله « شوبنهاور » ـ هذه الفكرة عن الأغريق ، واستخلص منها الاستنتاج المنطقى ، القائل : **« ان الحب يسبب من الألم أكثر مما يسبب من اللذة . فاللذة ليست سوى تصور . وكان خليقا بالعقل أن ينهانا عن الحب ، لولا أن الدافع الجنسى يتغلب على سلطان العقل .. ومن ثم ، فقد يكون الخصى (بتر الأعضاء التناسلية) أفضل » !..** غير أن المنطق شىء ، والعلم القائم على المشاهدة والحقائق شىء آخر . وقد أثبت العلم أن الخصى لا يذهب بالحافز الجنسى ، وكان الاغريق يعلمون ذلك .. بدليل القصة التى رواها « فيلوستراتوس » عن مغامرة عبد خصى مع سيدة من « الحريم » فى بيت مولاه .. وفى الأدب الاغريقى القديم الكثير من أمثال هذا الدليل .

العين مصدر الفتنة وحمرة الخجل توقد النار

● **ولقد** نظم « ثيوكريتوس » قصيدة كاملة فى الرثاء لصديقه الطبيب « نيسياس » ، والتوجع للواعجه ولوعاته الناشئة عن الحب ، بدأها بقوله :

« ما من علاج آخر للحب يا نيسياس ، سوى عرائس الخيال .. وانه لعلاج رقيق ، عذب ، ولكن الوصول اليه عسير » !..

ولو تأملنا هذه النصيحة ، لوجدناها تطابق ما ينصح به علم النفس الحديث من « التسامى » .. فكان الأغريق يدركون

أن خير علاج للحب ، هو تحويل الذهن والعواطف عنه ، بالاشتغال بأمور أخرى تستغرق تفكير المرء ومشاعره . وقد دعا « ثيوكريتوس » صديقه الطبيب – فى هذه القصيدة – الى أن يحاول نظم الشعر ، ليشغل به عن هواه .

على أن الاغريق لم يكونوا يعرفون العلاج لداء الحب فحسب ، بل انهم كانوا على المام بكيفية سريان « سم الحب » من النفس والقلب الى الأعضاء . ويقول « سوفوكليس » أن منفذ السم هو **العين** .. فهى التى ترى « ما فى عينى العذراء من سحر فاتن ، تمارس خلاله الربة « افروديت » هوايتها التى لا سبيل الى مقاومتها » !.. ويقول « يوريبيدس » عن دور العين : « ان ايروس يقطر الشوق من العينين ، فيوقظ الرغبة فى نفس الشخص الذى يريد أن يخضعه للهوى » !.. ويتكلم « ايخيلوس » عن « سهم الحب الرقيق ، الذى ينطلق من العينين » .. كما يقول « آخيل طاطيوس » ان للجمال جراحا تفوق ما يحدثه السهم .. « فهو ينفذ خلال العينين الى النفس ، لأن العين هى المسلك الذى يسلكه الهوى ليحدث جراحه » !

وتضرج وجنتى العذراء خجلا ، يوقظ الحب فى الرجل .. حتى اذا أرسلت العذراء صوتها خلال شفتيها الورديتين ، ثم استسلام العاشق ، على حد تعبير « سيمونيدس » . ولكن هذه الغلبة ليست ساحقة ، لأن سحر العيون والخدود ، ينتهى الى صراع تكون فيه الغلبة للرجل !.. وفى هذا يقول أريستوفينس : « ولكن ، اذا كان ايروس وفينوس القبرصية ينفثان الرغبة فى صدورنا وأفخاذنا ، ويحدثان توترا لذيذا وقاسيا – فى آن واحد – فى الرجال ، فانى أرجو أن يقال عنا اننا نحن (الرجال) الذين نقرر نهاية الصراع » !.. وذلك عن طريق « **المعابثات** » : الشفتان فوق الشفتين ، والعناق

الرقيق الطويل ، والشفاه فاغرة ولســـان كل من الحبيبين يداعب لسان الآخر ،بينما تنطبق يدا الشـــاب على ثديى الفتاة وأصابعه تتحسس الحلمتين .. وتعقب القبلات عضات رقيقة للمنكبين والثديين - بوجه خاص - ثم تمتد يد الشاب فتنضو غلالة الفريسة الحسناء .. توطئة لقربان الهوى !

كل هذه المعابثات و « الطقوس » - فى معبـد الهوى - مأخوذة عن الكتابات الاغريقية القديمة .. على أن لكل مرحلة منها أنواعا : فهناك القبلة التى يتناول فيها كل من العاشقين أذنى حبيبه ، ليقرب وجهه اليه .. وهناك القبلة التى تطبع على الكتف أو النحر أو الثدى .. الخ .

صدر الأنثى هو المنفذ الى المتعة

● **ويبدو** أن صدر الأنثى كان مصدر الهام عظيم للادباء والفنانين الاغريق . ولا يبين مدى مشاعرهم نحو الصـدر ، قدر قصة « فيرنى » ومحاميها « هيبريدس » . فقد اتهمت « فيرنى » بجريمة خطيرة ، وانعقدت المحكمة للنظر فى أمرها .. **وبدا أن الرأى العام كان يتجه الى اعدام المذنبة الجميلة . فما كان من « هيبريدس » الا أن مزق ثوبهـا عن صدرها ، وكشف عما لثدييها من جمال متألق ، فاذا « تقدير القضاة للجمال » يحملهم على أن يحجموا عن اعدام صاحبة مثل هذا الصدر الفاتن !..** والذين قرأوا قصة الحروب الطروادية ، يذكرون مدى نقمة الملك « مينيلاوس » - ملك اسبارطة - عندما افتتنت زوجته « هيلين » بالفتى « باريس » وتبعته الى طروادة .. وبعد الغضب والحروب الأليمـة ، لم يكد « مينيلاوس » يرى ثديى « هيـلين » عاريتين ، وصـدرها مكشوفا ، حتى نسى غوايتها ، وصفح عنها !

ولو أن كاتبـا جمع كل ما انعكس على الأدب والفـن الاغريقيين ، من مفاتن صدر الأنثى ، لملأ مجلدات . ولكنـا

نكتفى بمثال أو مثالين .. فقد كتب « نونس » يشبه حلمتى الثديين بمصدرين لانطلاق سهام الحب .. وهو يصف كيف أن « ديونيسس » ــ كرمز للعاشق ــ يقرب يده الملهوفة من صدر الفتاة الواقفة أمامه ، و .. « **بحركة تبدو غير مقصودة ، يلمس البروز المتكور تحت صدرها ، فاذا ما لمس النهدين الشامخين ، بدأت يد الرب المفتون بالنساء ــ يقصد « ديونيسس » ــ ترتعش** » !.. وفى موضع آخر ــ من القصيدة عينها ــ يقول نونس : « وكان جزائى أن أمسكت بيدى تفاحتين كانتا تبدوان كفاكهتين توأمين نبتتا من جذع واحد » !

ومثالنا الثانى ، هو ما نظمه « أوفيد » الشاعر : « وأخيرا نضوت عنها ثوبها ، الذى كان من الرقة بحيث أنه لم يكن ذا أثر يذكر .. ومع ذلك فقد ظلت تناضل محاولة أن تستتر به . **وراحت تقاوم وكأنها غير راغبة ، ولكن تصرفها كشف عن حقيقة رغبتها ، اذ لم تلبث أن انهزمت بسهولة** ! واذ وقفت أمامى عارية تماما ، لم أر أية شائبة فى كل جسمها . فيا للمنكبين ويا للذراعين التى رأيتها ورحت أتحسسها !.. ويا للثديين المبديعتى التكوين ، وكأنهما خلقتا للمداعبة !.. ولكم بدا قوامها مشدودا فى اتساق تحت ثدييها الناهدين ، لا تشوبه أية غضون !.. كان كل ما رأيت خاليا من أى عيب .. وفى افتتانى ، شددت قوامها العارى الى قوامى .. » !

العادة السرية عند الذكور والاناث

● **الشائع** أن العادة السرية مصدر اكتفاء ذاتى يعوض عن ممارسة الحب . ومهما يكن من الأسماء التى أطلقت على هذا النوع من العمليات الجنسية ، فنحن نؤثر أن نسميه ــ فى هذا الفصل ــ « العادة السرية » ..

ولقد كان للعادة السرية ــ فى حياة الاغريق ــ دور ليس بالصغير .. اذ أنهم لم يكونوا يعتبرونهـــا رذيلة ، ولم يكن لديهم نحوها من التحرج الخلقى ما هو معروف لدينا اليوم ، وان كانوا ــ فى الواقع ــ قد أدركوا أضرار الافراط فيهـا ، بقدر ما كانوا يعترفون بما تتيحه من لذة ومتعة . **وقصارى القول أنهم كانوا ينظرون اليها كبديل لممارســـة الحب ، وكصمام أمن خلقته الطبيعة لتفادى الأمراض الجنســـية ، وتجنب آلاف الاثام والخطايا التى تترتب على ممارسة الحب : كالانجاب غير الشرعى ــ وما ينجم عنه من نتائج ــ وكالسجن فى حالات الاغتصاب ، وكالانتحار الذى قد تقدم عليه الفتاة ..**

ومن ثم ، فان الاغريق كانوا يقرون العادة السرية ، حتى أن فنانيهم كانوا مشغوفون بتصوير مناظر ممارســتها على الأوانى الخزفية . وفى المتحف الملكى ببروكسل ، توجد الى اليوم كأس اغريقية مزدانة برسم فتى يكلل الغار رأسه ، وهو يمارس هذه العملية !

على أن العادة السرية للاناث ، كانت من الموضوعات التى لم ترد كثيرا فى آثار الاغريق الأدبية . هذا أمر طبيعى ، اذا راعينا أن أحاديثهم عن الرجال كانت هى الغالبة .. **والواقع أن الفتيات الاغريقيات لم يكن أقل ممارسة للعادة السرية من الفتيان .. وكن يمارسنها باليد أو باستخدام أدوات كانت تبتكر وتصنع لهذا الغرض !..** وكانوا يسمون هذه الأدوات « بوبون » Baubon أو « اوليسبوس » Olisbos .. ولقد كانت مدينة (ميليتس) التجارية ــ الوافرة الثراء والبذخ ــ مركزا لصناعتها ، ومنها كانت هذه الأدوات تصدر الى جميع البلدان .. وينم بعض ما ورد فى مخلفات الاغريق المكتوبة ، عن أن اعارة هذه الأدوات كانت عادة شائعة بين الصديقات !.. بل أن منهن من كانت تتحرى الصانع الماهر ، لتعهد اليه بأن

يضنع لها أدوات تلائمها وترضيها بشكل خاص .. وكانت الفتاة تستخدم هذه الأدوات وحدها ــ فى خلوة ــ أو تشرك احدى صديقاتها معها . ومن هنا امتزجت العادة السرية ــ لدى الاغريقيات .. ب « السحاق » ، وهو ممارسة العملية الجنسية بين أنثيين .

« سافو » .. ملكة عاشقات الجنس المماثل !

● وتجمع المعلومات على أن السحاق كان شائعاً فى جزيرة (ليسبوس) بوجه خاص ، ولهذا اشتقت تعبيرات فى بعض اللغات الأوربية ــ مثل « الليسبيانيزم » و « الحب الليسبى » للاشارة الى العلاقات المشينة بين الاناث بعضهن وبعض .. كما أن مصطلح « امرأة ليسبية » يطلق ــ فى بعض البلدان الأوربية ــ على المرأة الفاجرة ، بل على العاهرة أحياناً .

ولقد كانت (ليسبوس) مسقط رأس « سافو » ، التى وصفت فى مخلفات الاغريق بأنها من « ملهمات الشعراء » و « عرائس الخيال » و « راهبات فينوس » ، كما وصفت بأنها « ملكة المساحقات » ، ملكة عشق الجنس المماثل فى الحضارة الاغريقية ــ وكانت شاعرة موهوبة ، طبقت أشعارها الآفاق . وقد ولدت « سافو » فى حوالى سنة ٦١٢ قبل الميلاد ، وكان لها ثلاثة أخوة ، هاجر أكبرهم ــ وكان يدعى « كاراكسوس » ــ الى (نوكراتيس) بمصر ، وهى أحد المواقع التى أقيمت عليها مدينة الاسكندرية .. فاستقر هناك بصحبة غانية هاجرت معه ، وتدعى « دوريكا » .

ولقد قيل أن « سافو » تزوجت ــ فى صباها ــ وأنجبت ابنة تدعى « كلائيس » ، ولكن الأدلة على زواجها ضئيلة وضعيفة ، كما أن هناك ما يرجح أن « كلائيس » كانت احدى صديقاتها ، وليست ابنتها . **والذى تجمع عليه كل الأدلة ، هو أن حياة « سافو » وأشعارها كانت تفيض بالحب لجنسها .**

وكانت تحيط نفسها بحاشية من الفتيات الحسان .. وكانت اجتماعاتها بهن تمتاز بتبادل الأشعار ، وبعزف الموسيقة ، وباللعب والرقص والغناء !

وكان حب « سافو » لفتياتها حبا عارما ، مشبوبا ، لم تتورع عن وصفه فى أشعارها بعبارات تتمثل فيها العواطف الفياضة ، والتصوير المتأجج الاثارة . وعلى ضوء ما تناهى الينا من كتابات الاغريق ، لم يكن حب « سافو » هذا معتبرا من الرذائل ، بل ان حب الجنس المماثل بين الاناث لم يكن رذيلة .. واذا كان ثمة لوم قد وجه الى « سافو » ، فما كان ذلك الا لصراحتها وعلانيتها فى المجاهرة بشىء كانوا يعتبرونه من الأسرار الشخصية !

الفحولة فى حب الأنثى لابنة جنسها !

● **ولقد** وصف « هوراس » سافو بأنها « ذكر » ، لأن طابع الفحولة كان أغلب ما يميز حبها .. وكانت تهتز بقوة هذا الحب العاتى « كما تهتز السنديانة فى العاصفة » !.. ويفيض شعرها بما كانت تلقاه من نشوة ، وهناء ، وآلام ولوعات فى هذا الحب .

وكانت أحب فتياتها اليها ، فتاة تدعى « آتثيس » .. وقد روت « سافو » ــ فى كثير من أشعارها ــ كيف تولد هذا الحب فى أعماقها فراحت تقاوم تدفقه الطاغى ، ثم .. « وكطفل يطير الى أمه ، ها أنذى أطير اليك ! » وراحت تناجى الربة « افروديت » وتشكو اليها لوعاتها وأساها ، وتضرع اليها كى تعينها على تحقيق ما تصبو اليه نفسها .. **ولم تقو الربة على أن تصم أذنيها دون هذا الدعاء ، فبثت فى قلب « آتثيس » الجرأة والشعور بالثقة المفعمة بالبهجة فى الحب ، وبهذا تفتحت نفس الفتاة لتقبل حب « سافو » !**

وكان كلف « سافو » بصاحبتها أقوى بكثير من هيام أى رجل بامرأة ، كما أن الهوى الذى جمع بين « سافو » و « آتثيس » ـ بعد ذلك ـ كان أقوى من أى غرام بين ذكر وأنثى ، فكأنما امتزجت الاثنتان فى كيان واحد شطر الى جسدين !.. على أن الغيرة كانت تفرى فؤاد « سافو » أحيانا ، كلما ساورتها الهواجس ازاء علاقة « آتثيس » بأحد من البشر ، ذكرا كان أو أنثى .. ثم ضرب الفراق بين الاثنتين ، اذ انتقلت « آتثيس » الى (ليديا) .. ولكنه لم ينل من وجد « سافو » وهيامها ، فكانت تنظم القصائد شوقا الى فتاتها .

وكان القدامى يرون فى علاقة « سافو » بتلميذاتها ، مقابلا لعلاقة التى كانت بين « سقراط » وتلاميذه .. وفى تعلق « سافو » بالفتاة « آتثيس » ما يقابل علاقة الفيلسوف الكبير بتلميذه « ألسيبياديس » .. وكم كتب فلاسفة وأدباء فى فى تحليل أوجه الشبه بين الفريقين . والواقع أن الحساسية المرهفة نحو الجمال لدى « سافو » و « سقراط » ، كانت الأساس الذى قامت عليه علاقات الهوى والوصال بين كل منهما والشباب من أبناء جنسه !

البغاء عن الاغريق

● **بالرغم** من صعوبة الحصول على مراجع وافية عن « البغاء » فى الحضارة الاغريقية القديمة ، فان القدر الذى استطعنا التوصل اليه يبين بجلاء ان « البغاء » كان من الظواهر الجنسية الشائعة عند الاغريق ، **وانه لم يكن يقتصر على « بائعات الهوى » اللائى يرتزقن ببيع أجسادهن ، بل كان يشمل الخليلات اللائى يعشن مع من يحببن حياة زوجية كاملة لا ينقصها سوى طقوس الزواج الشرعى ، و « كاهنات**

فينوس » اللاتى كن يمارسن العلاقات الجنسية مع الرجال كلون من الطقوس التى تتطلبها عبادة الربة « فينوس » !

ومن هنا تعددت الألفاظ التى كانت تطلق على « البغى » . كما أن الاغريق كانوا يتحاشون استعمال كلمة « البغى » أو « العاهر » على بائعات الهوى ، فكانوا يسمون أرقى طبقاتهن : « الرفيقات » أو « الأنيسات » .. وكان من الأسماء الشائعة لبائعة الهوى : « المعبرة » ــ بكسر الميم وسكون العين ــ أى « المعدية » ، وهو اسم اقتبس عن عادة الغوانى فى التسكع عند الجسور لاصطياد العملاء !.. و « المرأة العامة » ، و « الجارية » ــ من الجرى ، لأنها كانت تؤدى مهمتها ثم تسارع بالانصراف ــ و « أداة المخدع » ، اشارة الى أنها مجرد « أداة » للمتعة .. و « الذئبة » و « النرد » ــ أو « زهر الطاولة » ــ تشبيها لها بالنرد الذى تتداوله أيدى الرجال فتهزه ثم تلقيه !

كانت لبيوت الهوى « تسعيرات » تفرضها الدولة !

● **وكانت** للبغايا ــ اللاتى يتجرن فى أجسادهن ــ بيوت للهوى ، وفى هذه البيوت ، كانت أدنى طبقات البغايا يستقبلن الرجال . فكن يقفن فى مداخلها عاريات ، أو فى غلالات رقيقة شفافة ، حتى يتحن للزائر أن يختار من بينهن من توافق ميوله وذوقه .

وكان لدخول بيوت الهوى رسم زهيد ، يتباين فى فئاته وفقا لتباين البيوت . والى جانب هذا الرسم ، كان على الزائر أن يقدم للبغى « هدية » ، بمثابة الأجر . وكان صاحب البيت ــ أو صاحبته ــ يدفع من حصيلة رسم الدخول ضريبة سنوية للدولة ، اسمها « ضريبة البغاء » .. **كما أن الهدية ــ أو « الاكرامية » ، كما كانت تسمى ــ التى**

يدفعها الزائر للفتـاة ، كانت محددة وفقا لـ « تسعيرة » خاصة .. اذ كانت بيوت البغاء - والبغايا أنفسهن - تحت رقابة دقيقة من الدولة ، صونا للآداب العامة ، والصحة .

وكانت معظم بيوت البغاء - فى المدن الساحلية - تتجمع فى الأحياء القريبة من الموانىء .. كما كانت تنتشر - بوجه عام - فى الأحياء التى كان يطلقون عليها اسم (سيراميكس) ، أو أحياء صناع الأوانى الفخـارية . فكانت تمتد فى شارع عريض ، يبدأ فى سوق الحى ، ويتجـه شمالا حتى أبواب المدينة . وكثيرا ما كان هذا الشارع يخترق أحد الأحياء ذات الصبغـة الدينية ، فلم يكن الاغريق يرون فى هـذا ما يمس قداسة الحى ، لأنهم كانوا يرون فى البغاء نظاما اجتماعيـا يصرف الرجال عن محـاولة النيل من أعراض الفتيـات .. وبالتالى ، لم تكن زيارة بيوت البغاء أو أحياء الدعارة بالأمـر المستـهجن !

نعال « فتيات الشوارع » تطبع الدعوة للمفتونين !

● **ولم تكن** أحياء البغـاء تفتح أبوابها « قبل السـاعة الرابعـة من بعـد الظهر ، وذلك« **لكى لا ينصرف الشـباب عن الأعمال وممارسة الرياضة** » . وفى تلك الأحياء ، لم تكن ثمة بيوت - على النسـق الذى شرحناه - بل كانت هناك غرف تجلس أمامها البغايا فى أوضاع مثيرة . فاذا عرج زائر على احداهن ، دخلت معه غرفتها ، وأوصدت بابها ، بعد أن تعلق عليه لوحة تحمل كلمة « مشغولة » . وكان الزائر يدفع الأجر للفتاة مباشرة .

وعرف الاغريق طبقة أخرى من البغايا ، يطفن بأماكن وشوارع معينة من المـدينة ، ليتصيدين العمـلاء .. وهى طبقـة لم تكن تحترف البغـاء احترافا كاملا ، وانما كانت

تمارسه كمهنة ثانوية .. وتقع هذه الطبقة ــ فى الترتيب ــ بين نزيلات بيوت البغاء ، وفتيات أحياء الدعارة .

ومن طريف ما يروى عن فتيات الشوارع ، انهن كن يسرن فى أحذية نقش على نعالها بالمسامير عبارة : ((**اتبعنى**)) !.. فكانت العبارة تنطبع على الأرض غير الحجرية ، فتلفت نظر السائر خلفها وتنبهه الى مهنتها !.. ويروى ((ألسبياديس)) ، أنه شغل مرة بفتاة ، كانت تحيط خصرها بحزام كتب عليه : ((**حبنى ، ولكن لا تغار اذا نالنى غيرك من الرجال**)) !.. وكانت هذه الطبقة تتسكع عادة فى الشوارع الحافلة بالحركة ، أو المفضية الى أرصفة الميناء . وكن يصطحبن صيدهن الى الحجرات التى يقمن فيها ، أو الى الأركان المظلمة والبقاع غير المطروقة من المدينة !.. وربما اصطحبنهم الى الحمامات العامة ، أو الى فنادق وحانات أعدت حجرات خاصة تؤجرها لهن !

((الأنيسات)) .. طبقة كانت موضع تقدير المجتمع !

● **أما ((الرفيقات))** أو ((الأنيسات)) فكن يشغلن مكانة مهمة فى الحياة الاغريقية . وكن ــ على نقيض الطبقات الأخرى من البغايا ــ يستمتعن باحترام المجتمع . اذ كن يمتزن بذكاء وقاد ، وتعليم راق ، وبديهة ولباقة . أى أنهن كن قديرات على أن يبهرن من يتولين الترفيه عنهم ، من علية القوم .. من قادة ، وسياسيين ، وأدباء ، وفنانين . **وبهذا كن يجمعن بين الامتاع الذهنى والامتاع الجسدى . ومن ثم كان لهن أثر ملحوظ فى حياة كثير من الشخصيات المبرزة فى التاريخ الاغريقى .. وقد يمكن أن يقال انهن كن أشبه بسيدات ((الصالونات)) فى الحضارة الفرنسية ــ فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ــ وبفتيات ((الجيشا)) فى اليابان ، الى حد ما !**

وكان للرفيقة منهن بيت خاص ، مؤثث بأفخم الرياش ، لا يخجل أحد من دخوله .. بل ان تماثيل البعض منهن ، كانت توضع فى المعابد والبنايات العامة الى جوار تماثيل القادة والزعماء !.. ولعل أبرز دليل على قدرهن فى المجتمع الاغريقى ، ان مهنتهن كانت أكثر رواجا وازدهارا ، فى المدن التى تجتذب الأجانب ، كالمدن التجارية والبحرية ، لا سيما (كورنثه) .. حتى لقد كان من الأمثال الشائعة : « **الرحلة الى كورنثه لا تعود بالربح على رجل** » !.. اذ كانت المتع التى يجدها الرجل هناك ، تشده اليها حتى ينفق كل أمواله ، فيرحل عائدا الى بلاده خالى الوفاض !.. فقد كانت (كورنثه) تزخر بالأنيسات ، وبالبغايا ، وبكاهنات معبد « ڤينوس » أو « افروديت » ، اللائى كن يتجاوزن الألف عددا ، وكن يعرفن بـ « الكاهنات » أو « خادمات المعبد » .. وكانت أرض القلعة — وهى أقوى معقل فى المدينة — تضم معبد « افروديت » ، وقد حفت به أسوار من الكتل الحجرية الكبيرة . ويراه القادمون — فى البحر — من مسافة بعيدة .. وقد أقام الأتراك — أثناء احتلالهم بلاد اليونان — مسجدا فوق موقعه !

اهداء الفتيات الى معبد « افروديت » !

● **ومن** طريف ما يؤثر ، أن « اكسينوفون » بن « تثيسالوس » — وكان من أغنى نبلاء (كورنثه) ، نذر للربة « أفروديت » أن يكرس مائة فتاة لخدمتها فى المعبد ، اذا هو فاز فى المباريات الأوليمبية ، فى سنة ٤٦٤ قبل الميلاد . وقد بر بوعده عندما فاز ، فنظم الشاعر « بيندار » — وكان من أعظم شعراء اليونان — قصيدة لم تلبث أن أصبحت أنشودة على كل لسان ، وقد جاء فيها :

« أيتها المشتهيات المنشودات فى (كورنثه) الغنية ،

يا أخلص الوفيات لـ « بيبيثو » ـ الغواية والاغراء ـ يا من ترسلن دموع العطر الذهبية ، وسحائب البخور فى تقوى وخشوع ، وتتجهن بأرواحكن محلقات الى « أفروديت » أم الحب السماوية ، التى تكفل لكن ـ من السماء ـ الصفح الجميل والغفران العذب .. يا من تتضرعن ، كى ترتشفن رحيق فاكهة الشباب الغض ، فى مباهج الغرام .. لقد ساق « اكسينوفون » الى بستان الملكة القبرصية (أفروديت) مائة فتاة ، برا بوعده » !

وفى مجتمع هذه نظرته الى البغاء ، كان من الطبيعى أن يزدهر الأدب الذى يدور حول هـذه الظاهرة الاجتماعية الجنسية ، وحول « كاهنات أفروديت » ، و « كاهنات فينوس » .. والواقع أن الأدب الذى تناهى الينا ـ فى هذا المجال ـ زاخر ، متعدد الألوان .. وكم من مسرحية كوميدية وضعها مؤلفها لتصوير احدى هؤلاء الغوانى ، أو لتقوم بتمثيل أهم دور فيها غانية ذات شهرة فى زمنها !

« تاييس » عشيقة الاسكندر المقدونى

وزوجة بطليموس !

● **ولعل** التمثيلية التى وضعها « فريكراتيس » ـ تحت عنوان « كوريانو » ـ من أطرف هـذه « الكوميديات » موضوعا .. اذ تدور حول أب وابن هاما معـا ـ وفى وقت واحد ـ بحب احدى الغانيات ، وراحا يتنافسان على التقرب اليها ، ويتصارعان على الحظوة لديها ..

ومن « الكوميديات » التى وضعت خصيصا لارضاء غانية معينة ، وأطلق عليها اسم هذه الغانيـة : « ثالاتا » لديوقليس ، و « أوبورا » لألكسيس ، و « فانيون » لميناندر .. وقد خلد « ميناندر » غانية أخرى فى مسرحية وصلت

الى العصر الحديث ، وان تناولتها الأقلام بالتحوير والتعديل ، من جيل الى جيل .. تلك هى « تاييس » الأثينية ، التى كانت عشيقة الاسكندر الأكبر ، والتى كانت من أقدم الغوانى اللائى استغللن سلطان جمالهن فى المسائل السياسية .

ومما يروى عن تأثير « تاييس » على الاسكندر ، أنها صحبته فى معركة (جوجاميلا) ، التى انتصر فيها الفاتح الاغريقى على الفرس ، ودخل بابل غازيا ، واستولى بعدها على العاصمة الفارسية القديمة (برسيبوليس) .. وهناك أقام مأدبة هائلة ، احتفالا بالنصر ، أريقت فيها الخمور أنهارا ، وحضرها عدد كبير من الغوانى ، كانت « تاييس » أجملهن على الاطلاق .. **وعندما شعشعت الخمر فى الرؤوس ، وجرى الدم حاميا فى العروق ، صاحت « تاييس » فى الاسكندر أن الوقت قد حان ليتوج أمجاده باشعال النار فى القصر الملكى الفارسى ، انتقاما لما فعله الفرس بالمعابد والمقدسات الاغريقية فى (أكروبوليس) و (أثينا) فى عهد « اكزيركسيس »** .. وسرعان ما تحمس الجميع .. وعلى أنغام الموسيقى ، أشعلت النار فى القصر ، وكان الاسكندر صاحب أول مشعل ألقى فى القصر ، وكانت « تاييس » صاحبة المشعل الثانى !

ولقد ارتفعت « تاييس » - بعد موت الاسكندر - الى مكانة الملكة ، اذ تزوجت من بطليموس الأول ، الذى آل اليه حكم مصر .

عشيقة الملك تترك آثارها على ذراعيه !

● **ومن** أشهر « الأنيسات » الاغريقيات « لاميا » الأثينية ، التى كانت عازفة قيثارة ، وراعية للفنون ، فى عهد « ديمتريوس بوليوكريتس » . وقد اكتسبت شهرة وثروة طائلة ، حتى أنها أعادت تشييد معرض الصور فى (سيسيون)

ـ على عشرة أميال الى الغرب من (كورنثه) ، بعد تدميره ..

ويروى « بلوتارخ » أن « ديمتريوس » أوفد مرة فريقا من السفراء لمفاوضة حاكم كان على شقاق معه . **وبعد أن انتهت المفاوضات السياسية ، لاحظ السفراء على ذراعى الحاكم وساقيه آثار جروح وندوب . فلما سألوه عن سببها ، قال انها عضات أسد اضطر الى أن يصارعه يوما .. وهنا ضحك السفراء وقالوا ان ملكهم كان يحمل آثارا وندوبا كهذه ، من وحش خطير ، يدعى « لاميا » !.. وكانوا يقصدون الغانية ، عشيقة الملك !**

وفى التاريخ الاغريقى « أنيستان » تحملان اسم « لائيس » ، كانتا من أشهر الغوانى .. وكانت كبراهما تعيش فى (كورنثه) أيام حرب (البلوبونيز) ، وقد عرفت بجمال باهر ، وجشع لا يفتر . وكان كثير من كبار الاغريقيين يتهالكون على بابها !.. أما « لائيس » الصغرى ، فقد ولدت فى (صقلية) ، وكانت ابنة « تيماندرا » صديق « السبياديس » . وقد تنافس على حبها أشهر الشعراء والفنانين ، ولقيت مصرعها قتيلة بأيدى الحاقدات عليها لجمالها !

تمثال لغانية وسط تماثيل الأبطال والملوك

● **وبين** تمثالى الملك « أرشيداموس » والبطل « فيليبوس » ـ فى (دلفى) ـ أقام الاغريق تمثالا للغانية « فيرنى » ، دون أن يجدوا فى ذلك آية غضاضة . وقد روينا ـ فى الحديث عن صدور النساء ـ كيف أن جمال صدر « فيرنى » أنقذها من الاعدام ، أثناء محاكمتها .

وقد ولدت « فيرنى » فى مدينة (طيبة) اليونانية ، وكانت مثالا للجمال الكامل ، وقد اعتادت أن تستر هذا الجمال تحت أثواب سميكة لا تكشف حسنه . ولم تكن

تتردد على الحمامات العامة ، كما أن رؤيتها عارية كانت من أندر الأمور . ويروى أنها لم تكن تتعرى الا فى الاحتفال بعيد « بوسيدون » . **فاذا ما اشتد تزاحم الاغريق – الوافدين من كافة أرجاء اليونان – على شاطىء البحر ، نضت « فيرنى » عنها ثيابها ، وسرحت جدائل شعرها ، ثم وقفت لحظات ليتأملها القوم عارية ، وقفزت بعد ذلك الى البحر .. وقد أوحى هذا المنظر الى « آبيليس » بتحفته الخالدة : « أفروديت تبرز من البحر » !**

وكان صانع التماثيل « براكسيتيلس » مشغوفا بها ، وقد استوحى جمالها كثيرا من تحفه . وكثيرا ما حاولت أن تسأله عن أجمل أعماله ، ولكنه كان يراوغها ، الى أن كان معها – ذات يوم – ودخل خادم لينهى اليه أن النار شبت فى « الاستوديو » ، فقفز « براكسيتيلس » مذعورا ، وصاح : « اذا لم تكن النار قد أتت على تمثالى « ساتير » و « ايروس » ، فالخسارة طفيفة ! » .. واذ ذاك ، ابتسمت « فيرنى » وأخبرته بأن النبأ كاذب ، وانها كانت حيلة منها لتعرف أبدع آثاره . وكان جزاؤها أن أهداها تمثال « ايروس » ، فأهدته بدورها لمعبد « ايروس » ، وقدر له أن يصبح من أهم المعالم التى كانت تجتذب الناس الى زيارة (طيبة) زهاء قرن من الزمن !

ولم يكن التمثال كل ما قدمته هذه الغانية لمسقط رأسها .. بل انها أنفقت على اعادة بناء أسوار المدينة ، بعد أن كان الاسكندر الأكبر قد هدمها . فكافأها القوم على ذلك بأن نقشوا على الأسوار : **« هدمها الاسكندر وأعادت بناءها الغانية فيرنى »** !.. كما عهدوا الى « براكسيتيلس » بصنع تمثال لها موشى بالذهب ، هو الذى أقاموه بين تمثالى الملك والبطل !

السياسى الذى طلق زوجته ليتزوج غانية !

● **من** هذا نرى أن الغوانى لم يكن مفتقرات الى الذكاء واللباقة والمشاعر النبيلة .. ولعل أشهرهن — فى هذا المضمار — هى « اسباسيا » التى فتنت « بركليس » ، وكان سياسيا ورجل حكم واسع الشهرة ، عظيم المكانة ، كما كان زوجا وأبا ، فى حين أنها لم تكن سوى .. غانية !

ولقد استطاعت ((اسباسيا)) بجمالها ، وبراعتها أن ترقى الى مكانة كبيرة ، فكانت تجمع فى بيتها علية القوم فى زمنها ، ومنهم ((سقراط)) .. ولقد بلغ الافتتان ببركليس أن طلق زوجته ، ليتزوج من ((اسباسيا)) . وسرعان ما اكتسبت نفـوذا سياسيا ، حتى ليعزو اليها ((بلوتارخ)) أنها التى حرضت على قيام الحرب بين (أثينا) و (ساموس) .. وأتاح تدخلها فى الشئون السياسية مادة لمعارضى «بركليس» ، كما أثار استهجانا لدى الشعب ، لا سيما أن الغانية لم تكن من بنات (أثينا) ، وانما ولدت فى (ميليتوس) ، كما أن زواجها من « بركليس » — بعد طلاقه من زوجته — لم يكن يتيح لها مكانة الزوجة ، بل كان يجعلها بمثابة المحظية ، أو زوجة « من الدرجة الثانيـــة » !.. **ومن ثم اشتدت عليها الحملات ، حتى لقد قيل انها كانت تتصيد النساء لزوجها .. وقال السياسى ((اثينايوس)) انها كانت تمتلك بيتا للدعارة .. وتبارى الشعراء فى وضع ((الكوميديات)) عنها !**

ومن الطبيعى أن مهنة « الرفيقات » أو « الأنيسات » أو الغوانى ، كانت تتطلب عناية فائقة بالجمال ، وبراعة فى اخفاء آثار السنين على البشرة ومعالم الجسم .. وكانت — الى جانب ذلك — تتطلب دراية واسعة بأساليب السلوك ، وبنواحى الضعف فى الرجال . ولم يكن الوفاء من الفضائل التى يجب أن يتزودن بها ، بل انهن كن يتلقين — منذ بداية

شأنهن ــ أن الوفاء لا يمكن أن يكون سلما يرقى الى المكانة المنشودة ، وأن الكذب يجب أن يكون فنا يمارس ببراعة ، وأن الحشمة والحياء ليسا من صفات الغوانى !

أم تعد ابنتها لمهنة البغاء !

● **وفى** « حوار الغوانى » ، نجد مناقشة طريفة بين أم وابنتها .. كانت الأم قد فقدت زوجها قبل عامين ، واضطرت الى معاناة الشظف ، ثم لم تجد بدا من أن تدفع ابنتها الى البغاء ..

كروبيل (الأم) : وهكذا ترين ، أن التحول الى امرأة ــ بدلا من عذراء ــ ليس بالأمر الفظيع ، كما كنت تخالين .. فقد كنت مع سيد لطيف ، أهداك نقودا ، وسأبتاع لك بجزء منها قلادة .. **وعليك أن تتعلمى كيف تعاملين الرجال ، فليس لنا مورد آخر للقوت .. لقد عانيت الكثير ــ خلال العامين ــ الحصول على غذاء لنا ، ورحت أربيك وأرتقب بصبر وأمل ..** كنت أوقن من أنك حين تصلين الى سن البلوغ ستعولينني ، وستثبتين قدميك وتصبحين غنية ..

كورينا (الابنة) : عم تتكلمين يا أماه ؟.. ماذا تعنين ؟

كروبيل : اذا خرجت مع الرجال ، فاشربى ونامى معهم ، من أجل النقود !

كورينا : على غرار « ليرا » ، ابنة « دافنيس » ؟.. ولكنها عاهرة !

كروبيل : ليس هذا بالشىء البغيض ، فانك ستصبحين غنية مثلها ، وسيكون لك عشاق كثيرون . **ما الذى يبكيك ؟ .. ألا ترين كثرة العاهرات ، ومدى تهافت الرجال عليهن ، وما يجمعن من مال ؟..** لقد كانت « ليرا » فى أسمال ، وها أنتذى ترين ما أصبح لديها من ذهب ، وثياب مطرزة ، وأربع خادمات . لقد أحسنت التصرف مع الرجال وأرضت

الجميع .. لم تكن تنفجر بالضحك لأتفه الأسباب كما تفعلين ، بل كانت تبتسم بطريقة عذبة جذابة . ثم أنها عاشرت الرجال بحكمة ، فما خدعت واحدا ممن كانوا يأتونها أو يطلبونها ، ولا تعلقت بأحد منهم ، فى الوقت ذاته . **واذا ما ذهبت للعشاء مع أحد – بعد أن يقدم لها هبة بسيطة – فانها لا تسرف فى الشراب ، لأن الرجال يكرهون النساء اللائى يخرجهن الشراب عن الوعى .. ولا تملأ بطنها بنهم ، بل تمس الأكل مسا بأطراف أناملها ، وتمضغ فى سكون دون أن تحشو شدقيها ، وتشرب فى تؤدة ودون افراط ..** ولا تنطق بأكثر مما تدعو الضرورة لقوله ، ولا تضحك من أحد من الحضور ، بل تقصر نظراتها على الرجل الذى استأجرها .. واذا حان أن ترافقه الى المخدع ، تجنبت كل نزق وتبذل ، وجعلت كل همها أن تأسره ووتجعله عشيقا لها .. فاذا تعلمت أنت كل هذا ، فاننا سنعيش فى هناء !

وفى حديث الأم ، نجد كل قواعد السلوك التى كان المجتمع الاغريقى يتطلبها من الغانية ..

هكذا أصبح الجنس من الطقوس الدينية !

● **كان** من العادات المتبعة فى (كورنثه) – منذ أقدم العصور – أن القوم اذا سعوا الى معبد « افروديت » فى موكب كبير ، ليرفعوا اليها الصلوات ، ساقوا معهم أكبر عدد ممكن من الغوانى . اذ كانت ممارسة الجنس من الطقوس ، لا سيما عند تقديم القرابين .. ويقول بعض المؤرخين القدامى ، أن هذه العادة ترجع الى أيام أن غزا الفرس بلاد اليونان ، فاتجهت جموعهم الى معبد « أفروديت » ، **كما سعت الغوانى الى هناك ، ورحن يصلين من أجل خلاص الوطن من أعدائه . وقد أقام أهل (كورنثه) فى المعبد لوحة كبيرة ، نقشت عليها أسماء جميع الغانيات اللائى اشتركن فى**

هذه المناسبة ، وجاء فيها : ((هؤلاء الغانيات قد اتحدن فى صلاة صادقة الى الربة القبرصية ، من أجل الاغريق وأبطالهم الشجعان ، ومن ثم لم تشأ أفروديت المقدسة أن تسلم (الاكروبول) الاغريقى للفرس)) .. وأصبح من المعتاد – بعد ذلك – أن ينذر المرء عددا من العاهرات للمعبد ، اذا أراد التقرب الى ((أفروديت)) !

ومن الواضح هنا أن البغاء – فى المعبد – كان ذا طابع دينى . ولم يقتصر هذا ((البغاء الدينى)) على معبد ((أفروديت)) فى قبرص ، بل انه كان شائعا فى كافة معابد هذه الربة فى بلاد اليونان . **ولقد كرس معبد (أبيدوس) الى ((أفروديت)) ، بعد أن استطاعت احدى الغانيات – عندما احتل الأجانب (أبيدوس) مرة – أن تسكر حراس العدو بالحب والخمر ، وأن تسرق منهم مفاتيح القلعة وتسلمها الى المجاهدين ، الذين هاجموا الحراس وهم سكارى ، واستولوا على القلعة وحرروا المدينة .**

ولقد كان البغاء الدينى معروفا – قبل ذلك – فى بابل ، وفى معبد ((افروديت)) بعد ذلك ، فى مدينة (بيبلوس) ، وهى مدينة فينيقية كانت تقوم فى موقع ((جبيل)) الحالية . على أن ((هيرودوت)) يقول ان هذا النوع من البغاء لم يعد موجودا هناك ، فى أيامه . وفى الوقت ذاته ، ذكر أن العذارى – فى (ليديا) – كن يمارسن البغاء ليجمعن ((دوطة)) يتوسلن بها الى الزواج !.. وانه ((من أشنع القوانين المرعية فى بابل ، أنه ما من امرأة الا ويجب أن تجلس فى رحاب أو جوار معبد ((افروديت)) ، وتضاجع رجلا غريبا عنها ، ولو مرة واحدة فى حياتها .. واذا جلست امرأة عند المعبد ، فليس لها أن تعود الى بيتها الا بعد أن يلقى رجل غريب بقطعة ذهبية فى حجرها ، ثم يجامعها خارج جدران المعبد .. واذا ألقى رجل قطعة ذهبية فى حجر امرأة ، فليس لها أن

ترفض مضاجعته ، والا كان رفضها اهانة للربة !.. فاذا فرغت من العملية ، أصبحت المرأة مباركة ، ولم يعد لأى غريب أن يشتريها ، مهما يكن ما يقدمه لها » !

فلسفة ((بغاء المعبد)) عند الاغريق

● **ولكى** نفهم تقليد « بغاء المعبد » عند الاغريق ، نذكر أنه يقوم على فكرة أن « أفروديت » لا تكتفى بأن تمنح بهجة الحب ، وانما هى تأمر الاناث جميعا بأن يساهمن فى تحقيقها . واذا كسبت الفتاة صداقها من البغاء عند المعبد ، فان زواجها يكون مباركا . **أما اذا وهبت الفتاة نفسها نهائيا للبغاء وأسلمت مكاسبها لصندوق المعبد ، فان هذا يكون منها نوعا من التقوى التى تقربها الى الربة مانحة الجمال والنضوج والخصوبة للاناث ..** وفى فترات كثيرة – من تاريخ الاغريق – كانت الفتاة التى تمنح نفسها لزوجها قبل الزواج – وفى رحاب المعبد – أعز مكانة من تلك التى تحمل بكارتها معها الى بيت الزوجية !

وكانت الفتيات اللائى يكرسن أنفسهن للبغاء فى المعبد ، لا يقتصرن على ممارسة الاتصال الجنسى مع الرجال ، بل كن يضفين بهجة وتألقا على أعياد الربة ، بالرقص والغناء وعزف الموسيقى ..

وكان هذا هو الشأن فى البغاء العادى – عند الاغريق القدامى – كذلك . فان البغى لم تكن تكسب عيشها فقط بتكريس نفسها لارضاء رغبات الرجال ، بل كانت بعملها تساهم فى تكريم الجمال .. **ولكى نفهم هذا ، يجب أن ندرك أن الحضارة الاغريقية لم تكن ترى فى البغاء منكرا ، بل ان بعض من كانوا موضع تكريم الرأى العام – مثل ((تيمستوكليس)) – كانوا أولاد بغايا ، ولم ينل هذا من سمعتهم أو مكانتهم !.. وكان للفيلسوف ((ارسطوطاليس))**

ابن من بغى تدعى ((هربيليس)) ، ظل يحبها حتى نهـــاية حياته . وكان ((أفلاطون)) مدلها فى هوى ((أركياناسا)) ، وهى من أجمل غوانى (كولوفون) . وقد أوردنا من قبل نبأ غرام « بريكليس » بالبغى « اسباسيا » وزواجه منها . وقد كانت لهذه البغى علاقة كذلك بالفيلسوف « سقراط » .

يضاف الى ذلك ، أن القوم لم يكونوا يجدون حرجا فى أن يسجلوا « أمجـــاد ! » البغى على قبرها .. ويقـــول « ديكايار كوس » فى كتابه « الهبوط الى كهف تروفونيوس » :

« يرى المسافر الوافد على أثينــــا ـ من ايليوسيس ـ بالطريق المعروفة بالطريق المقدسة ، منظرا عجبا .. فعندما يصل الى الموقع الذى يتراءى له عنده ـ لأول مرة ـ معبد أثينا ، وتتكشف المدينة أمامه ، يرى فى الطريق ضريحا سامقا يعلو على كل ما يحيط به . **وسيظن المســـافر ـ فى بادىء الأمر ـ أنه ضريح أحد عظماء أثينا ، وسيعتقد أنه أنشىء على نفقة الدولة .. فماذا يكون شعوره ، اذا ما علم أنه ضريح عاهرة تسمى بايثيونيكه ؟ »**

وكانت هذه البغى فاتنة حاكم بابل ، أيام الاسكندر المقدونى . وقد انتهز الحاكم ـ وكان يدعى « هاربالوس » ـ انشغال الاسكندر فى فتوحاته ، وحمل معه ذهبا كثيرا من بابل ، وهرب الى (أثينا) ، وراح ينفقه على فاتنته .. وبعد موتها ، أقام لها هذا الضريح !

عشق الذكور عند الاغريق

● **أكثر** الكلمات شيوعا ، فى تسمية هذا النـــوع من العـــلاقات التى تنشأ بين ذكر وآخر من جنســـه ، هى Paederasty . ولو أننا رجعنا الى الأصـــل اليونانى الذى اشتقت منه هذه الكلمة ، لوجدناها مؤلفة من كلمتين « حب »

و « فتى » .. والحب هنا بمعناه الشامل ، أى الروح والحس . أما الاشتهاء الجنسى لدى ذكر لذكر آخر ، فكان يسمى Paedomanic . والتعبيرات الغالبة التى تصادفنا – فيما خلفه الاغريق – توحى بأن **« حب الفتيان » كان ينطوى على حب كل ما هو جميل فى « الفتى » من ميزات عقلية وبدنية ، ومن ثم فان الاشتهاء – أو الحب الجنسى – لم يكن هو الغالب ..** وكان الحب يتضمن أن ينفث المحب فى محبوبه ما يود تلقينه اياه من معرفة وقيم ومبادىء . وفى هذا يقول اكسينوفون : « اننا اذ ننفث حبنا فى الغلمان الملاح ، انما ننأى بهم عن الجشع والبخل ، ونضاعف حبهم للعمل ولمغالبة الصعاب وخوض المخاطر ، ونعزز تواضعهم ومقدرتهم على ضبط النفس » !

لا بد من النضوج الجنسى للمحبوب !

● **وليس** معنى هذا أنه لم يكن للحب الجنسى وجود .. ومن المهم أن نذكر دائما – ونحن نستعرض هذا الموضوع – **أن « المحبوب » أو « الحمل » ، كما كانوا يطلقون عليه ، لم يكن قط فى سن الطراوة ونعومة الأظافر ، وانما كان دائما من ذوى النضوج الجنسى ، الذين وصلوا الى مرحلة البلوغ .** ويجب أن نذكر – بجانب هذا – أن اليونان تقع فى المنطقة التى تتيقظ فيها المشاعر الجنسية مبكرة ، وهذه المنطقة تضم : اليونان ، وأسبانيا ، وايطاليا ، وجنوب فرنسا ، والشرق الأوسط ، وشمال افريقيا . ومن ثم فان الفتى غالبا ما يكون فى أوائل أو وسط العقد الثانى من العمر . **ولهذا ، فان الحب الجنسى وممارسة الجنس مع أولاد دون البلوغ ، كان موضع استنكار وعقاب .**

ولقد وصف « هوميروس » فى « الأوديسة » كيف أن « أوديسيوس » ارتاد جزيرة (سيرس) وأوغل فيها ، فاذا

به يلتقى بالرب « هيرمز » — دون أن يعرفه طبعا — فى صورة فتى « وقد نبتت فى ذقنه بوادر اللحية ، فزادت سحر صباه حسنا » .

ويشير « أفلاطون » الى عبارة « هوميروس » هذه ، فى بداية كتابه « بروتاجوراس » ، اذ يقول : « من أين أنت آت يا سقراط ؟.. وان كنت فى غير حاجة للسؤال ، لأننى أعرف أنك كنت تطارد « ألسبياديس » المليح . لقد رأيته أول أمس ، وقد أوتى لحية .. ولى أن أهمس فى أذنك بأنه رجل ، ومع ذلك فقد خيل الى أنه لا يزال جد فاتن !

« **سقراط** : وما بال لحيته ؟.. ألست من رأى هوميروس ، الذى يقول ان « الصبا يغدو أعظم فتنة ، عندما تبدو بوادر اللحية » ؟.. وهذا هو مبعث سحر ألسبياديس الآن ! »

ويقول ستراتون : « لكم يطربنى ازدهار الصبا فى ابن الثانية عشرة ، ولكن ابن الثالثة عشرة مرغوب أكثر منه . ويظل ابن الرابعة عشرة نبعا دافقا لأنواع الحب ، وان كان ابن الخامسة عشرة أكثر سحرا . أما ابن السادسة عشرة ، فهو مشتهى الأرباب ، ولست أرغب فى ابن السابعة عشرة ، وان كان هو هوى الرب « زيوس » وحده . أما اذا تاق المرء الى من هو فوق هذه السن ، فان الحب هنا لن يكون مجرد عبث ، بل هو يتطلب استجابة ، وأخذ وعطاء » !

حب الفتيان مظهر لامتياز الرجل على المرأة

● **ولا بد** من أن نضع نصب أعيننا — فى هذا الجزء من البحث — أن الثقافة الاغريقية القديمة كانت تقوم أصلا على الذكر . أما الأنثى فكانت كل مهمتها انجاب الأطفال وتدبير البيت . **وبالتالى ، كان الرجل هو مركز الحياة الفكرية . لهذا كانت العناية الأولى موجهة الى تربية الولد وتعليمه .**

وكانت من أغرب عاداتهم أن يجتذب الرجل اليه غلاما أو فتى يرافقه فى حيـاته اليومية ، ويكون له ناصحا ، وموجها ، وراعيا ، وصديقا يدفعه الى فضائل الرجال . وقد بلغ من تأصل هذه العـادة فى نفوسهم ، أن انصراف أى رجل عن رعاية ولد كان يعتبر انتهاكا للواجب ، وأن انصراف أى ولد عن شرف صداقة رجل كان يعتبر عارا !

وكانت رعاية الرجل الولد تتجه الى فهم عقله ونفسه ، والى تغذيته جسميا وعقليا وروحيا على أكمل وجه .. وكان الكمال فى الذكر يتمثل فى أن يكون « طيبا وجميلا » وأن يكون جماله شاملا للجسد والعقـل والنفس . وكان الاهتمام بجمال الجسم يجعل الاغريقى يقضى ثلاثة أرباع نهـاره فى الألعاب الرياضية ، يمارس التمرين عاريا ..

ويحفـل التراث الأدبى الاغريقى بالأحاديث عن المتعـة الجمالية التى كانت عين الاغريقى تستمتع بها بتأمل جمال الفتيان .. وكان الشعراء يتغنون بهذا الجمال ويمجدونه ، كما أن الفنانين كانوا يرون فى جمـال الذكور تجسيدا لكل جمـال دنيوى على سـطح الأرض .. وكانت أسماء أبرع الفتيان جمالا تكتب على بعض التحف الفنية ــ كأوعيـه الزهور ــ من قبيل الزخرفة والتمجيد معا .

وكانت العينان أبرز معـالم الجمال فى الذكور ، لدى قدماء الاغريق ، وكم تغنى الشعراء بسحرهما وفتنتهما .. وتليهما الوجنتان ، اللتان قال الشـاعر « فرينيكوس » فى وصفهما : « يشـع على وجنتيه وهج الحب » ، وقال سوفوكليس : « ان ايروس يسـهر على صون الخـدود الناعمة » .. ويأتى شعر الفتى فى المرتبة التالية . ويروى عن « بوليكريتس » ــ حاكم (ساموس) ــ انه لم يكن يمل النظر الى جدائل شـعر « سميرديس » الفتى الجميل الذى

اصطفاه لنفسه .. ولكنه فى نوبة من الغضب والغيرة ، أمر بقص الشعر الجميل ، حين رأى الفتى يغتر به !

بغاء للذكور لا يقل رواجا عن بغاء الاناث

● **والرأى** القديم فى الحب ، هو أنه « النزوع لكل ما هو جميل » .. واذا كنا قد أبرزنا هـذا على ما سواه ـ حتى الآن ـ فليس معناه أن حب الاغريق للذكور كان منزها عن كل ميل حسى أو نزعة جنسية . **بل ان منهم من كان يرى فى العلاقة الجنسية تنمية للحب وزيادة فى اثراء العاطفـة . كما أن الايناس والمنادمة يدخلان فى العلاقة بين ذكر وذكر .** ومن ثم فان حب الاغريق للغلمان والفتيان يبـدو للرجل الحديث أشبه بلغز غير واضح .. ولكن الواضح أن انعكاس هذا الحب على الأدب الاغريقى ، جعله من دعامات ثقـافة القوم ، ومن الوجوه التى تتبدى بها حضارتهم .

وفى كل الأزمان والأقوام ، نجد أن من الحب ما يمكن شراؤه بالمال . ومن ثم فان حب الاغريق للذكور لم يشذ عن هذه القاعدة ، حتى لقد شهدت الحضارة الاغريقية « بغاء » بين الذكور ، لم يكن أقل شأنا من دعارة النساء . **وكان بغاء الذكور متفشيا فى (أثينا) ، حتى أن « سولون » ـ الفيلسوف والشاعر والسياسى الكبير ـ حرم اللواطة على العبيد ، لأن فى ممارستها مظهرا من أبرز مظاهر « حرية الارادة » .. وضمن تشريعه ـ فى الوقت ذاته ـ عقابا لمن يتخذون من جمالهم تجارة وحرفة .. بل انه اعتبر أن « من يبيع جسمه لقاء مال ، يفرط بنفس الاستهتار فى مصالح الدولة » !**

وبوجه عام ، فان عشق الذكور كان مبـاحا فى أغلب الأوقات ـ عند الاغريق ـ اذا قام على « الميل المتبادل » بين ذكرين .. ولكنهم كانوا يستنكرونه اذا قام على أساس البيع

والشراء .. ومع ذلك ، فكم حفلت القصائد ــ التى خلفها شعراء قدامى ــ بالشكوى من جشـع « صبيانهم » ، ومن نهمهم الى المال .

ومن ناحية أخرى ، لم يكن مما يعاب أن يتهافت الغلمان والفتيان على الرجال الذين يبرزون بين أقرانهم ، كأبطال الرياضة ، والشعراء ، وذوى المال والملاحة ..

غلمان يؤجرون للرجال بموجب عقود !

● **وكذلك** لم يحـل استنكار الحب القائم على المال ، دون أن يكون هناك غلمان يباعون ، أو يؤجرون ــ بعقـود ايجار تتفاوت آجالها ــ لمن يهوون جمال الذكور من الرجال .. كما كانت فى (أثينا) وبعض المدن الساحلية ، دور للبغاء يعمرها الذكور ، كدور العاهرات تماما . على أن أكثر سكان هـذه الدور كانوا من أسرى الحـرب .. ومن أبرز هؤلاء « فيدو » الذى وقع أسيرا فى أيدى أهل (اسبارطه) فى حربهم مع أهل (ايليس) ، فباعوه للأثينيين الذين أودعوه دارا للدعارة ، حتى أغرى سقراط أحد أتباعه بأن يشتريه !

وبرغم كل هذه الحقائق ، فان الناحيـة الجمالية كانت أكثر غلبـة على الناحيـة الحسـية ، فى عشق الذكور لدى الاغريق .. وكان الأساس فى علاقة الرجل بصبى أو فتى ، هو تربية هذا الصغير ليحرز الفضائل التى يجب أن تتوفر فى الرجل .. وكان العاشق مسئولا عن فتاه ، حتى أن بعض المدن الاغريقية كانت تعاقب العاشق ، اذا صرخ فتاه أثنـاء القتال مع أى عدو !.

ونستخلص من كل ما قيل فى هذا الموضوع ، أن حب الغلمان كان شائعا عند الاغريق ، وكان أصلا يقوم على أسس دينية وجمالية . وكانت غايته هى الوصول الى المقدرة على

احراز الفضائل الشخصية والاجتماعية . ولم يكن عشق الغلمان يتعارض مع الزواج ، بل كان مكملا له ، كعامل مهم فى التربية والتعليم .. وكان القوم يعتقدون أنه أبقى أنواع الحب ، وانه يدوم حتى بعد الموت .. وكان – فى كثير من الأحيان – يخلو من العلاقة الجنسية ، ويتخذ شكل الصداقة الأثيره ، وان كان عشق الغلمان – بمعناه الجنسى – يصادفنا فى الحضارة الاغريقية منذ أقدم عهودها .

ختام البحث

الجسر المعلق (بقية ص ٧٦)

استطاعت – فأل حسن يبشر المهاجرين بأنهم خليقون بأن يبلغوا (يين دا) ، دون ما خسارة !

ولكن القنابل عادت تستأنف انهمارها فجأة ، وقد ازدادت قربا .. وقبل أن يجد أحد فرصة للانبطاح على الأرض ، انفجرت قنبلة كبيرة وسط الجموع المتزاحمة أمام الجسر .. وفى غمرة الاضطراب الجنونى ، أخذ الكثيرون يلقون بأنفسهم فى مجرى الماء .. بينما تدافعت أعداد كبيرة الى الجسر ..

والتفتت السيدة – وقد بلغت منتصف الجسر – خلفها ، وقد شل الذعر حراكها .. وتشبثت مستميتة بسياج الجسر الذى راح يتأرجح فى عنف تحت تدافع القادمين .. وفجأة ، مالت احدى السلتين بانحراف شديد ، فاختل توازن العصا على كتف السيدة ، وسقطت مع السلتين الى الماء ..

وضاع صراخ الأم فى غمرة صخب الناس ، ودوى القنابل !

هل يعود؟

قصة إنسانية

للكاتب البلغارى الكبير
إيڤان ڤازوف



ترجمة : جورج عزيز

صورة من جهاد الشعب البلغارى

هذه القصة تنقل لنا صفحة من صفحات حرب من الحروب العديدة التى اضطرت (بلغاريا) الى خوضها ، بعد استقلالها ، فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .. صفحة مجيدة من صفحات الجهاد القومى ، ولكنها ـ فى الوقت ذاته ـ مأساة انسانية حافلة بالمشاعر والانفعالات المثيرة ..

والقصة من أروع ما كتب « ايفان فازوف » ، الذى يعده البلغاريون « شيخ الادب البلغارى » ، والذى أطلق عليه كاتب روسيا الخالد « مكسيم جوركى » لقب : « شاعر البعث البلغارى المناضل » ، اذ عكست أعماله عقلية ونضال دعاة التحرر الوطنى والثوار ، وقد نظم عددا كبيرا من القصائد ، ضمتها دواوين : « الراية والربابة » ، و « مصائب بلغاريا » ، و « الخلاص » ، و « ملحمة المنسيين » ، و « امرأة من زاجورا » .. كما كتب كثيرا من القصص والروايات ، أشهرها : « جوابو الآفاق » ، و « رجال التربة » ، و « الثوار » ، و « تحت النير » .. وهذه الرواية الاخيرة أذاعت صيته فى أرجاء العالم .. وقد ترجم كثير من انتاجه الى لغات عديدة ، كما تعد قصائده وأغانيه من تراث بلغاريا الثقافى .

وفى سبيل اداء رسالته القومية ، خاض « فازوف » أغلب ميادين الادب ، فهو رائد القصة البلغارية القصيرة ، ورائد الرواية التاريخية ، وأول شعراء الوطنية .

● **ياله** من ضباب !.. ضباب كثيف خيم على قرية (فيترين) فى ذلك الخريف . كان الجو رطبا نديا ، بعد اذ تساقط مطر خفيف ، وبدت السماء كأنها ذابت واستحالت الى بخار بارد ، اشتدت وطأته على البيوت المنخفضة فى القرية .. بيد أن كل شىء كان قائما على قدم وساق فى الشارع

الموحل : طنين أصوات عالية ، وتيار مستمر من جماهير المارة، وعربات ركوب تجرها جياد قصيرة حزينة ، وعربات نقل محملة بالذخيرة تجرها الثيران ، ومواش تسد الشارع بين الفندقين الصغيرين ، اللذين هما أقرب الى النوع الذى يطلق عليه « الخان » .

وفى وسط هذا الخليط ، شقت وحدة من المجندين طريقها .. كان عدد قليل من أفرادها يرتدى معاطف الجنود ، وآخرون يتدثرون بمعاطف من جلد الغنم المقلوب ظهرا لبطن ليكون الفراء الى الخارج . أما أكثرهم كانوا ملتحفين ببطاطين رثة بالية صنعوا منها ما يشبه « الحرامل » ، ونعالهم مبتلة ، وكلهم مثقلون بأحزمة الرصاص .. بينما كانت بنادقهم — التى تزينها غصون شجر (البقس) — تطل من فوق مناكبهم .. وكانت أجسامهم توشك أن تتجمد ، بينما أقدامهم تغوص فى الطين حتى الركبة ، والعاصفة تقذف وجوههم بحبات البرد المتساقطة . لكنهم — رغم ذلك كله — كانوا يغنون .. وكانت أغانيهم تعبر عما فى صدورهم من مشاعر وآمال !

● ●

● **وعند** باب أحد الفندقين وقفت جماعة من الضباط والمسافرين ، ومن حولهم بعض القرويين يتفرسون — فى دهشة وفضول — فى وجوه أولئك الذين بلل المطر ثيابهم .. وأمام الفندق أو « الخان » الآخر ، وقفت جماعات متفرقة من السيدات والفتيات والصبية : كانوا جميعا متدثرين بالحرامل يرتجفون ، وقد احمرت وجوههم من قسوة البرد . **وقد احتشدوا فى هذا المكان ليستقبلوا ويودعوا الجنود المحنكين المخضرمين الذين كانوا يمرون ، ضمن الفصيلة القادمة من (هرمانلى) ، حيث كانوا قد ذهبوا لمحاربة الأتراك . وكان عليهم أن يتجهوا بسرعة الى (صوفيا) ، ومن هناك الى ميدان القتال لمحاربة الصرب .**

.. وسمعت صيحات بين جماعات الواقفين :

ـ ها هو ذا ابن « جورجى » !.. نتمنى لك حظا سعيدا يا « تشفيتكو » .

ـ أوه !.. انظروا هناك .. انه « رانجيل » !

ـ أوه !... وهذا هو ابن « نيديلكا » أيضا !.. أنظر يا « ايفان » ، ان أمك هنا .

وفى لهفة وسرعة قدمت باقات الزهور ، بينما كانت الدموع تبلل الخدود والألفاظ تنبعث من الأفواه غير مكتملة .. وظل الجنود فى سيرهم ماضين .

وصاحت فتاة صغيرة شقراء متوردة الخدين ، تضع وشاحا زاهى الألوان : « أماه .. هو ذا أخى ! » .. وهتف أخوها الصغير الذى يناهز الثامنة ، وهو واقف الى جوارها مادا ذراعيه الى أحد الجنود : « أخى سنويان ! » .. وصاحت أمه بالجندى ، من خلال دموعها : « ابنى ..! ! ابنى ! ! »

وعندئذ خرج من الصف شاب قوى أنيق ، ذو عينين سوداوين ، فقبل يد أمه ، وطبع قبلة على جبين كل من أخته وأخيه .. ثم ثبت وردة صغيرة فى عروة سترته ، ووضع خلف أذنه وردة أخرى قدمتها اليه فتاة صغيرة ، وأخيرا أسرع الخطى ليلحق بالجنود ويشاركهم ترديد الأناشيد من جديد ..

وقالت له أمه : « ليحالفك الحظ السعيد يا بنى ! » . وصاحت الفتاة بصوتها الخافت : « سنويان ! » .. بيد أن صوتيهما غرقا فى الجلبة والضوضاء . واختفى « سنويان » أو كاد بين الجنود ، وما لبث الجنود كلهم أن اختفوا وراء الضباب !

وظلت الأم تحدق فيهم بعينين لا تريان شيئا !.. بينما أحاطت الفتاة رأسها ووجهها بالوشاح الزاهى الألوان .. وعندما دخلت الأم بيتها انفجرت باكية ، ثم فتحت خزانة

ثياب قديمة وأخرجت منها بعض الثياب الداخلية ، وجاءت بشمعة وثبتتها أمام الأيقونة المقدسة وأشعلتها .. ثم راحت تصلى بحرارة وهى مطرقة طول الوقت فى خشوع .

.. فى ذلك الوقت كانت المدافع تقصف بالقرب من (دراجومان) .. وكان ذلك فى الرابع من نوفمبر سنة ١٨٨٥ .

— ٢ —

● وفى تلك الليلة ذاتها ، رأت الأم « تسينا » — فى منامها — حلما مفزعا !.. رأت سحابة ضخمة ، يتوغل الجنود فيها ، و « سنويان » بينهم .. أوه يا سيدتى العذراء الطاهرة !.. ما أبشعه من منظر ! السحابة تقعقع وتدمدم ، والانفجارات تملأ السماء ، والأرض تهتز وترتج .. اذن لقد استمرت المعركة !.. **رباه !.. لقد ضاع « ستويان » وسط السحابة ، ولم يعد له وجود !**

وحينما استيقظت الأم « تسينا » ، كانت الظلمة حالكة مطبقة ، ولم يكن يسمع فى الخارج سوى عويل الريح .. فهتفت : « انها المعركة .. أيها السيد المسيح اشمله بحمايتك !.. سيدتى العذراء الطاهرة ، ارحمى سنويان ..! »

ولم تعاود النوم الا مع بزوغ الفجر ..

وفى صباح اليوم التالى ، سألت العم بيتر : **« ما معنى السحابة فى الحلم ؟ »**

— السحب !؟.. هناك نوعان : سحب تتحول الى أمطار ، وسحب تذوب . ما نوع السحابة التى حلمت بها ؟

.. وروت له قصة الحلم . ولاذ العم بيتر بالصمت هنيهة ليفكر .. لم يتذكر أنه قرأ فى الكتاب الذى عنده عن الأحلام اشارة الى سحابة من هذا النوع !.. واذ رأى امارات الجذع مرتسمة على وجه الأم — وهى تتطلع اليه ملهوفة شبه لاهثة — قال لها فى اشفاق : « لا تنزعجى يا « تسينا » .. انه حلم

طيب . ان السحابة معناها أنباء طيبة أيضا .. سيصل اليك خطاب من ستويان » .. وعندئذ أشرق وجه العجوز !

وبعد ستة أيام تلقت خطابا حمله اليها أحد أصدقاء ستويان ، من المتطوعين المنوط بهم حراسة الأسرى ..

انشرح قلب « تسينا » الحزين بهذا الخطاب وامتلأ بالفرحة ، فانطلقت تجرى بأقصى سرعة تسمح بها عظامها الهرمة ، الى ستويانكا ، خطيبة ابنها .. وغمرتهم البهجة جميعا ، بيد أن « رادولشو » كان أشدهم ابتهاجا حينما علم أن أخاه سيشرح له كيف تصفر القنبلة اليدوية !

● ●

● وما أن خرجب الام « تسينا » الى الشارع ، حتى رأت جماعة من الاسرى ، وخلفهم جندى بلغارى خيل اليها أنه « ستويان » نفسه ، اذ كان يشبهه الى حد كبير . لكنه لم يكن هو .. بيد أن الاسرى ـ الذين وقع عليهم بصرها لاول مرة ـ شغلوا انتباهها ، فأخذت تحدث نفسها هامسة : « يا الهى !.. أهكذا يبدو الصربيون ! ؟.. انهم يبدون أناسا طيبين ، ولكم أشفق على أمهاتهم !.. ترى هل يعرفن أين هم الآن ؟.. ثم رفعت صوتها تناديهم : « أيها الشبان .. انتظروا قليلا ! »

وأسرعت الى بيتها ، ولم تلبث أن عادت حاملة زجاجة « راكيا » (١) ، وأهابت بالجنود الصربيين أن يقفوا لتقدم لهم شيئا منها . ولم يسع الجندى البلغارى ـ المرافق لهم ـ الا أن يبتسم ابتسامة عبرت عن طيبة قلبه .. وأوقفهم عن السير .

وصاح الاسرى المرهقون ، بعد أن أشاعت « الراكيا » الدفء فى أجسامهم ، معربين للام « تسينا » عن اعترافهم بجميلها : « شكرا لك .. شكرا لك » .. كما صاح الجندى البلغارى فى انشراح : « لقد بقيت لى أيضا جرعة .. فى صحتك أيتها الجدة ! »

وتساءلت الام « تسينا » ، بعد أن مضى الرجال فى طريقهم : « انهم جميعا مسيحيون مؤمنون بالله .. فماذا دفعهم الى القتال ؟ »

---

(١) شراب مصنوع من عصير البرقوق

— ٣ —

● **وتم توقيع الهدنة ..**

ودنا عيد الميلاد ، وبدأ الجنود يعودون لقضاء عطلة العيد مع ذويهم . وعاد الى قريتنا (فيترين) نفسها عدد من الجنود ، ولكن « ستويان » لم يكن بينهم .. واستبد القلق والانزعاج بالأم « تسينا » ، وامتلأ ذهنها بأفكار بشعة .

وأخذت الأيام تتعاقب ، والأم لا تكاد تحول نظرها عن باب البيت ، ترقب العائدين أثناء مرورهم بدارها .. لقد عاد رانجيل ، وستويتوف ، ثم بيتر — ابن دينكو — والأخوان ستامانوف .. **وفى كل مرة كانت تنهض من مكانها وتخرج لتسأل عن ابنها « ستويان » .. ولكن أحدا لم يكن يعرف عنه شيئا !.. لقد شاهدوه فى ميدان القتال فى وقت من الأوقات ، ولكنه لم يلبث أن اختفى !..** وكان قلبها يوشك أن يكف عن النبض كلما سألت عنه ، ثم تروح تذرع البيت جيئة وذهابا فى قلق .. دون أن ينقطع تفكيرها فى ستويان !

وأخيرا .. دخلت ابنتها « كينا » مهرولة لاهثة ، وهى تصيح : « أماه ، لقد عاد العم ديمتر ! » .. فانتصبت واقفة ، وأسرعت ملهوفة نحو ديمتر قائلة : « مرحبا بك يا ديمتر .. أين تركتم ستويان ؟ »

ولم يكن ديمتر يعرف عنه شيئا هو الآخر ، ولكنه قال مشفقا على الأم : « من الجائز أن يكونوا قد أرسلوه صوب (فيدين) .. ثم غمغم الجندى فى اضطراب : « وربما يكون عائدا من طريق آخر » !

.. فتنهدت قائلة : **« يا الهى .. أين يمكن أن يكون ولدى ؟ »..**

وعاودت الخروج لتلتقى بمحبوبة ابنها « ستويانكا » . ولكنها لم تكد تصل الى الباب ، حتى اشتدت دقات قلبها

مرة أخرى ، تحت تدافع الأماني .. كانت تأمل أن تذكر لها « ستويانكا » أنها تلقت رسالة من « ستويان » ، وأنه قادم للاشتراك معهم فى الاحتفال بعيد الميلاد !.. كانت تتمنى أن تنبس « ستويانكا » بكلمة .. ولكن الفتاة استقبلتها فى وجوم ، وظلت لائذة بالصمت ، وقد احمرت عيناها !

— ٤ —

● كانت القرية كلها تعج بالحركة كالخلية ، اذ كان أهلها يحتفلون بعودة الكتيبة الأولى ، وقد ثبتوا فى وسط الشارع — أمام بيت الأم « تسينا » — عمودين تعلوهما عصا كبيرة كالقوس ، وأحضروا من الجبل غصون أشجار زكية الرائحة ، لفوها حول العمودين والقوس ، ثم ثبتوا فيها ورقة أحضروها خصيصا من (بازاردجيك) ، بعد أن كتبوا عليها : « مرحبا بكم أيها الجنود الشجعان ! » .. ثم زينوا القوس بأعلام مثلثة الألوان . وهكذا أقاموا قوس النصر !

وأخذت القوات المنتصرة تروح وتجىء .. بينما كانت الأم المسكينة تفكر :

« قد يكون قادما بعدهم .. ولعله يتعمد الا يحضر الا عشية عيد الميلاد .. لماذا يحتفل بالعيد فى مكان آخر ؟ هؤلاء هم الجنود ما زالوا يتوافدون ، الواحد تلو الآخر .. زرافات لا نهاية لها .. انه سيعود هذا المساء ، فهو يعرف أن ثمة كثيرين فى انتظاره ، بقلوب تفيض هلعا وشوقا ! »

وفى الصباح التالى ، بكرت الأم فى الذهاب الى الكنيسة . و « فكت » عملة « الليفا » (١) — التى كان « ستويان » قد أرسلها اليها — واشترت شمعات أشعلتها بعد أن وضعتها أمام كل الأيقونات المقدسة فى الكنيسة .. ثم عادت الى بيتها

---

(١) اسم العملة البلغارية

مشرقة الوجه ، وهمست لنفسها قائلة : « سيعود اليوم على أى حال .. ان غدا عيد الميلاد .. أليس هذا هو الموعد الأقصى ؟.. آه يا سيدتى العذراء الطاهرة ، أعيديه الى ، يا ملاكى !.. يا يسوع ، املأ قلبى فرحا ! »

وجاءت ابنتها « كينا » مهرولة لتقول : ان مزيدا من الجنود قد عادوا للقرية .. فارتسمت امارات العبوس على جبين الأم « تسينا » ، وغمغمت فى غضب : « انك تجيئينى بالشائعات منذ مدة طويلة .. ألا اذهبى للترحيب بأخيك كما يفعل الآخرون ! »

وصاح الأخ الأصغر رادولشو : « أريد أن أذهب أنا أيضا مع أختى ! »

.. وهرع الصبيان الى الشارع الذى يكسوه الجليد ، ثم انطلقا الى الخلاء على طول الطريق الزراعى .. بينما وقفت الأم « تسينا » خارج الباب ، متأهبة لاستقبال ابنها ..

● ●

● **وهبت** الرياح باردة من الجبال .. وكانت القمم ، والوديان ، والسهول تبدو كلها بيضاء .. أما السماء فكانت فى سورة غضب . وفوق الطريق كانت جماعات من الغربان السوداء تحلق ، أو تقف على الأشجار ذات التيجان غير المرصعة ، وهنا وهناك ، على طول الطريق الزراعى الصاعد الى ممر (اهتيمان) ، كانت جماعات الناس الذين قدموا للترحيب بالجنود ، تبدو كالبقع السوداء على الجليد .. وكانت هناك فتيات ، وأطفال ، وسيدات مسنات .. وأخذ الجنود يصلون أفرادا وجماعات .

ومرت « كينا » ، ومعها أخوها « رادولشو » ، أمام الجماعة الأولى ، ثم الثانية ، والثالثة ، ومضيا فى السير .. كانا يتلهفان على أن يكونا أول من يلتقى ب « ستويان » ويرحب

به . انهما ، ولا شك ، سيتعرفان عليه رغم أن البرد الذى بدأ يتساقط أخذ يحد من مجال رؤيتهما !

وكان الطريق يزداد صعودا حتى يختفى عند قمة التل . ولذلك صعدت « كينا » ، ومعها « رادولشو » ، الى القمة .. وهناك كانت الريح أقوى ، وأشد عنفا . وبدا جنديان عند المنحنى ، وقد غطاهما البرد المتساقط ، ولكن « ستويان » لم يكن واحدا منهما .

وسألتهما كينا : « أيها الجنديان .. هل هناك جنود آخرون قادمون ؟ »

فأجابا فى اقتضاب : « لا نعرف أيتها الصبية .. لكن من تنتظرين ؟ »

وصاح رادولشو : « اننا ننتظر أخانا » .

ومضى الجنديان المرهقان فى طريقهما ..

وامتد بصر « كينا » وأخيها الصغير الى الطريق مرة أخرى .. كانا يشعران بشدة البرد ، وأخذت أطرافهما ترتجف ، بل ان أسنان « رادولشو » أخذت تصطك .. ولكن أخاهما قادم ، وعليهما أن ينتظراه ، والا نهرتهما أمهما وتعالى صراخها ان لم يعد معهما الى البيت !

وظهرت عربة بها شخصان ، تدثر كل منهما بقلنسوة و « حرملة » من جلد الغنم . وحين وصلت العربة الى حيث كانا يقفان ، اعترضت « كينا » طريق الجواد ، وسألت الراكبين : « أهناك جنود آخرون قادمون فى الطريق ؟ »

فأجاب أحدهما ، بعد أن رفع القلنسوة قليلا ، ونظر فى دهشة الى الفتاة التى كان لون بشرتها خليطا من الحمرة والزرقة ، بسبب البرد القارس : « لسنا نعرف يا بنيتى ! » .. ثم انطلقت العربة هابطة التل .

وتسمرت أقدام « كينا » وأخيها فى ذلك المكان . ومضت ساعات .. وازدادت ريح الجبل قوة ، وأخذت تصفع

وجهيهما وثوبيهما .. ومن حولهما تتدحرج حبـات البرد تذروها الريح فى رقصة جنونية .. ولكنهما لم يحركا ساكنا ! .. واستمرت أعينهما مركزة على المنحنى ، وهما يحدقان فى لهفة ، منتظرين أن يظهر أى كائن حى !

● ●

وكانت ((كينا)) فى تلك الأثناء تبكى .. وبدأ ((رادولشو)) يبكى بدوره ، وقد كانت أيديهما وأقدامهما تتجمد من شدة البرد ، كما بدت خدودهما زرقاء .. وكان الطريق ممتدا أمامهما الى القرية ، وقد اقفر تماما ، اذ عاد الذين قدموا للترحيب بذويهم من الجنود الى بيوتهم ، بعد أن بدأ ظلام الليل يزحف حالكا . وزاد اشتداد الريح وقسوة البرد ، الى حد لم يعهده الشقيقان فى أى وقت مضى .. وبدا الفرسان المبتعدون كأشباح سوداء وسط الجليد الأبيض .. وحملت الريح أغانى الجنود المرحة الى آذان الفتاة والصبى اللذين شرعا يسيران نحو القرية .

.. وأرخى الليل سدوله ، وهما يغذان السير ، منتحبين فى خفوت .. كانا يفكران فى أمهما التى تنتظرهما عند البـاب !.. وفجـأة جلجلت من خلفهما عربة أخرى ــ قادمة من فوق التل ــ تجرها ثلاثة جيـاد ، فصاحا بمن فيهـا :

((هل هناك جنود آخرون قادمون فى الطريق ؟))

.. لكن العربة مرقت أمامهما واختفت فى الظلام !

وكانت العاصفة الثلجية تعوى حولهما بعنف ، وبدا كأن عنفها وترنحها يوحيان الى ((كينا)) وأخيها بالجواب ... كانت قادمة من ((الغرب)) ، من ميدان القتال ، حيث كان الجليد الذى يتخلل مزارع العنب ، يتراكم فوق .. قبر ((ستويان)) !

محتويات الكتاب

الموضـــوع صفحة

مجلة الصغار للأولاد والبنات

شاب ينتصر على امبراطور ! ـ هل تعلم ؟ ـ شخصيات تغلبت على العجـز ـ الحساب مادة مســلية لذيذة ! ـ شخصيات خالدة : مدام كورى ـ أخطاء شائعة .. الخ .

كتابى
تصدر عن
الشعب
مؤسسة صحفية عربية
أخصائيون فى المطبوعات العاجلة
عضو اتحاد الصناعات
الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ ● مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١
التوزيع : مكتبة دار الشعب
المطابع : قصر العينى ت ٣١٨١٠ - ٣١٨١٨ - ٣١٨١٩ دير النحاس - تليفون ٨٤٤٨١٠
رئيس مجلس الإدارة السيد ابراهيم

دار الشعب